

قطاع الثقافة

الرقص على الألغام

مجموعة قصصية

عصام الصاوى



أول الكلمات

كانت مرارة الهزيمة دافعا للتخطيط لنصر كبير، وقدمنا أقصى ما لدينا للمعركة التى خططنا لها سنوات ست فى ظروف بالغة القسوة عسكريا ونفسيا واقتصاديا. كان الشباب المخطط والمنفذ والذى حصد النصر، ثم أهديناه لمصر فكان نواة للسلام لتحظى الأجيال بعدنا بهذه النعمة الرائعة. ولكى تدوم يجب أن يظل الجيش واعيا جاهزا دوما ليحمى مصر والسلام معا.

الكاتب

إهداء

إلـــــى ..

من أحب مصر أمس واليوم وغدا،

وكل الأبطال الذين خاضوا الحرب فأهدوا لها السلام،

وأرواح الأبرار الشهداء الذين حسدناهم،

ولكل من رفع آيات الانتماء والإخلاص أوسمة لأجيالها نورا،

وأساتذتى فقد علمونى أن الفخر بالماضى يصنع أمل المستقبل.

أقدم لكم جميعا منظومة فى حب مصر.

الكاتب

الحركـــــة الأولـــــى

كان شهر يناير عام سبعة وستين قد انتهى عندما اجتاز النقيب عاطف دورة قادة سرايا الهاون صغير العيار بامتياز. المقدم ممدوح قائد الكتيبة الخامسة استطلاع استقبل النقيب عاطف وهنأه على الدورة والامتياز وحمله مسؤولية قيادة سرية هاون الكتيبة فقد اصبح مؤهلا لذلك.

النقيب عاطف قدر موقفه بسرعة ووجد أن ضباطه على وأبو العباس هم أيضا فى احتياج لحضور هذه الدورة، وليست هناك فرصة هذا العام لذلك، ووجد أن الحل قريب للغاية ، فليرتب الدورة بنفسه داخليا فى سريته قبل أن ينسى بعضا مما تعلمه، كذلك طلب من المقدم ممدوح الموافقة على إرسال قادة أطقم الهاون إلى مركز التدريب القريب لحضور دورة تنشيطية.
إذن لم يتبق سوى الجنود حتى تكون السرية كلها قد تأهلت من جديد على الهاونات، وخطط كل شئ للتدريب عمليا أثناء تدريب الضباط وضباط الصف ، وكانت فترة قاسية بذل فيها الجميع مجهودا مضاعفا. وبالطبع تأخرت إجازاتهم جميعا حتى موعد الرماية بالذخيرة الحية كإختبار حقيقى لكفاءة النقيب عاطف فى إدارة نيران السرية، والضباط فى قيادة الموقع، كذلك الأطقم فى تنفيذ المهمة وإنتاج النيران.

وصلت سرية الهاون إلى ميدان الرماية وبسرعة تمت تجهيزات إحتلال مركز إدارة النيران والموقع وبدأت إجراءات رصد الهدف وتشوين الذخيرة. فاجأهم المقدم ممدوح وأمر أن يتخلى النقيب عاطف عن قيادة مركز إدارة النيران ليتولاها الملازم أبو العباس فى حين ظل الملازم على قائدا لموقع النيران. وذلك كاختبار عملى لكفاءة التدريب فى حالة تغيب القائد.
تم تحديد الهدف على الخريطة والأرض، ودونت الاحداثيات للاتجاهات والمسافات بينما قادة الأطقم يتصايحون وينادون الأفراد لسماع تمامات التجهيز وربط البيانات على تليسكوبات الهاونات بعد التأكد من توازيها حتى تسقط كل الدانات فى منطقة الهدف. كل ذلك كان يتم بينما المقدم

ممدوح يطالع بيانات الموقع والنقيب عاطف لا يكاد يتمالك نفسه يريد أن يتدخل فى إدارة البيانات ليطمئن إلى صحة الضرب' وبسرعة وفى الوقت المحدد كان الملازم أبو العباس ينادى إدارة النيران والموقع جاهز يافندم.

إضرب... هكذا أمر المقدم ممدوح، وانطلقت فى الجو دانة التدوين من هاون الأساس لتأخذ خط سيرها عاليا وتسقط فى البرميل الذى كان نقطة الرصد وسط منطقة الضرب وإنفجر البرميل متلاشيا تماما وسط دهشة الحاضرين فإن ذلك لايحدث كثيرا إلا مع أسلحة الضرب المباشر. وكان أن صاح الكل فى فرحة غامرة أن كانت طلقة التدوين دقيقة بهذه الدرجة، وإبتسم المقدم ممدوح وشكر الجميع على حسن تدريبهم وإنصرف بعد أن إطمأن على مستوى رجاله فلم يكن هناك داع أن يحضر باقى التدريب والذى أثبتوا فيه من البداية المهارة التى يتمناها الجميع فى رماية الذخيرة الحية فزرع فى نفوس الضباط والجنود الثقة بالنفس والسلاح والزملاء فانضموا معا وتداخلوا متلاحمين يدا واحدة.

الحركة الثانية

ولما كان اليوم الربع عشر من مايو كانت الكتيبة تتقدم شرقا على المحور الأوسط فى سيناء ضمن خطة التعبئة وتحركات الجيش لتحتل منطقة تمركزها فى الحسنة ثم تحركت ثانيا الى الشمال فى إتجاه العريش ثم أبو عجيلة وجنوبا إلى القسيمة. وكلما استقرت الكتيبة صدر أمر جديد بالتحرك حتى وصلت إلى نخل ثم التمد وبعدها الكونتيلا أقصى جنوب المواقع أمام الفرقة المشاة هناك فى تحرك طويل بعد أن استغرق ذلك أياما كثيرة حتى احتلت الكتيبة منطقة تمركزها.

عند الفجر فى اليوم الخامس من يونيو كان ضباط مجموعة إستطلاع المقدم ممدوح قائد الكتيبة قد خرجوا يستطلعون المنطقة ومحاورها فى رأس النقب جنوبا وظلوا يدرسون الخرائط والأرض حتى وصلوا إلى منطقة تحتلها فصيلة من قوات الحدود المصرية وكانت توجه أسلحتها إليهم داخل الأرض المصرية أطلقت فى إتجاههم طلقات تحذير ألا يتقدموا أكثر.
تقدم ضابط من هذه القوة إليهم ليتأكد أنهم مصريون ولم يصدقه أحد على الفور عندما أخبرهم أن الجيش الإسرائيلى قد بدأ هجوما شاملا على ثلاث محاور فى سيناء، وأن عليهم العودة إلى مواقعهم فورا. كأنما

العفاريت ركبت سائقى العربات المدرعة فانطلقوا بها بأقصى سرعة فوق المدق فى إتجاه الكتيبة، وكان لابد أن يدخلوا منطقة الموقع من الخلف.

الملازم أبو العباس كان قد احتل موقع إدارة النيران لسرية الهاون، بينما الملازم على يقود موقع النيران وأطلقوا الدانة الأولى لتدوين إحداثيات الهدف ويصححون بعدها للضرب مجموعة على العدو الذى يلتف خلف موقع الكتيبة.
لقد رصدوا عربات مدرعة تجرى بسرعة داخل سحابة الغبار لا يدرون أنها مجموعة استطلاع المقدم ممدوح وبينهم النقيب عاطف قائد سريتهم. وسقطت دانة التدوين أمام العربة الأولى بمائة متر، سوف يصححها أبو العباس واضعا فى الاعتبار أن الهدف متحرك.
الكل لا يهمه القذيفة التى إنفجرت إلى جوارهم فلا بد أن يصلوا إلى موقع الكتيبة ولم يتبق سوى كيلو متر واحد ويلاحظون على البعد القوات الإسرائيلية متقدمة فى اتجاه المواقع تطلق نيران المدفعية والطيران عليها. العربات كأنها كانت طائرة فوق بساط الريح فسقطت الدانات الثانية والثالثة خلفهم، ثم اكتشف الملازم أبو العباس أنه يدون الضرب على مجموعة إستطلاع المقدم ممدوح الذى كان يصيح ضاحكا فى النقيب عاطف أنت علمتهم الضرب لكى يصيدونا أولا قبل أن يفعلوها مع اليهود.

كان الإسرائيليون قد استطاعوا التقدم بالفعل تحت ستر نيران الطيران والمدفعية إلى موقع الكتيبة استعدادا لاقتحامها، وتزامن ذلك لحظة أن وصل النقيب عاطف إلى سريته فأمر أبو العباس أن يستمر فى إدارة النيران فهو قد دون بيانات الغلالات فوق القوات الإسرائيلية المتقدمة.
انطلقت دانات أبو العباس مجنونة عنيفة لتسقط فوق تشكيلاتهم بدقة تدربوا عليها، فى الوقت الذى كانت نيران الإسرائيليين تسقط فوق موقع سرية الهاون وانفجر أحد الصواريخ فوق درع دبابة قريبة، فأصيب المقدم ممدوح بشظايا كثيرة ونزف الدم ليلون سترة الأفرول باللون الأحمر.
لم يكن ذلك ليمنعه من إدارة معركة كتيبته فى الدفاع عن الموقع وإتاحة الفرصة لعناصرها أن تتقهقر إلى خلف موقع اللواء القريب فلم يكن من مهمة كتيبة الاستطلاع الدفاع عن المواقع بل تركت ذلك للواء المشاة وتراجعت تحت ستر نيران الهاونات، بينما وحدات الاستطلاع والدبابات الخفيفة تناور على وثبات وتحمى كل منها الأخرى فى تناغم وتناسق ثم لحق بهم المقدم ممدوح فى عربة مدرعة إلى موقعهم الجديد وقد التف

حوله بعض جنوده والضباط يضمدون له الجراح فى نقطة إسعاف الكتيبة.
كانت الخسائر فى المعدات طفيفة بينما استشهد الرقيب بشرى بشاى عطية والرقيب ميلاد حنا والجندى ينى ميخائيل والنقيب صلاح عبد الوهاب والملازم عبد القادر الحلوجى، وكانت غصة فى القلوب ودمع متحجر فى العيون وغيظ ملأ النفوس.

تلك الليلة بعد أن كشفت القوات فى سيناء وأصبحت بلا غطاء جوى يحميها وباتت فى متناول كل أسلحة القوات الإسرائيلية وكذا فى غياب الاتصالات اللاسلكية والأوامر فإن الانسحاب قد بات وشيكا.
لم تتحمل القوات أكثر من يوم آخر وليلة واحدة. ثم كان الاتجاه غربا عبر سيناء إلى المضايق المصيدة التى أحكمت القوات الإسرائيلية الأعمال لغلقها حتى لا تمر القوات بأسلحتها ومعداتها.
والنقيب عاطف يحس الرمل فى عينيه والمرارة فوق لسانه والإحباط فى أوجه عندما وصل إلى ممر متلا وكانت العربات محترقة بما فيها من جنود وأسلحة ومعدات وقد تجمعت ألوف القطع فى مشهد مأساوى مهيب مجسم لأمل راح، فقد كان واثقا عندما عبر إلى الشرق أنه سوف يصل إلى تل أبيب، ثم فى هذه اللحظة يناور ليمر غربا فى إتجاه العودة، وانزلقت دمعة صامتة مسحها خفية بهدوء.

سرية الهاون وبعض عربات سرايا الاستطلاع التى إنضمت إليها خرج بها النقيب عاطف شمال الطريق بضعة كيلومترات حتى لا يتعرض للقصف الجوى حتى وصل إلى مدخل متلا ورأى الصورة الكئيبة ولم يكن هناك إلا ثلاثة حلول، فجمع ضباطه وألقى إليهم بها ليختاروا واحدا.
كل الحلول كانت صعبة للغاية فإن الأول كان أن يمروا خلال المعدات المحترقة فى مداخل الممر بسرعة، مستخدمين دبابة فى المقدمة ويتم ذلك فى الفاصل بين غارتين جويتين، حيث كانت الغارات فى اليوم الثالث للقتال على أشدها. أما البديل الثانى فكان الاتجاه شمالا والعبور غربا من الإسماعيلية، وقدروا أن الموقف هناك لن يكون بالأفضل. وكان الاختيار الأخير أن يتوقفوا حتى الليل ثم يمرون حيث أن كفاءة الغارات الجوية ستكون أقل والتعرض للضرب الجوى ستكون نسبته بالتالى أقل. تجمع الكل على الرأى الأول، وكانت مغامرة كبيرة للنقيب عاطف أن يفعل ذلك فى وقت قصير بسرية كاملة الأسلحة والمعدات ولكن كان حظه عظيما، فكان السائقون على درجة تدريب عالية ونفذوا بسرعة لينضموا إلى باقى الكتيبة فى الغرب، كان الفارق كبيرا بين

رحلة الذهاب ورحلة العودة، وفى ذات الوقت كانت العقول تفكر فور الهزيمة كيف يكون النصر ومتى.

الحركة الثالثة

كان الزعيم يلقى خطاب التنحى حزينا فى لهجة مؤثرة، يحمل نفسه وحده مسئولية الأحداث. وملأ الغيظ عاطف كيف يتأتى للرجل أن ينسحب فى أقسى المراحل الحرجة من عمر الأمة العربية كلها، متخليا عن قيادة شعب مصر فى أحلك الأيام والمواقف، وبعد أن أفقده سيناء والجيش معا، وبعد أن تحطمت أحلام الشعب فى مستقبل رخاء قريب. لو حدث ذلك فإن نائبه سيتولى المسئولية ويستريح ناصر بعد أن جلب الهزيمة.
إن النهاية لا يمكن أن تكون هكذا أبدا، رغم شعور التشفى عندما رأى الزعيم يكاد يبكى على شاشة التليفزيون، ولكن عندما خرج الشعب فى مسيراته ينادى ببقاء ناصر أحس أن ذلك هو الأكثر مناسبة، ولا بد أن الرئيس سيولى كل الاهتمام لإعادة تجميع القوات المسلحة وتدريبها لتكون مستعدة لحرب تالية ترد الاعتبار الذى ضاع فى ستة أيام فقط.
عاش الجيش كل لحظات الهزيمة، وعاش الشعب حينا يرى كل شئ مهتزا بما فيها الثقة فى القيادات والجيش والتخطيط، وربما معجزة من السماء تنقذ مصر مما هى فيه، ولما لم تحدث بدأ الناس يتفكهون على أنفسهم والجيش عندما يجدوا شيئا يتعلقون به أملا.

الكل كان ينتظر أن يتغير شئ فى الموقف حتى يحس الجميع أن مصر مازالت حية قادرة على الفعل، ولن يكون ذلك إلا بالقوات المسلحة.
النقيب عاطف كان قد اصبح رئيس استطلاع القنطرة وتجمعت لديه المعلومات أن الإسرائيليين يقومون بتجميع الأسلحة والمعدات التى تركها الجيش المصرى فى سيناء ليرسلونها شرقا بعد تحميلها على القطار المتجه للعريش.
لوريات كثيرة حملت الأسلحة الخفيفة وجرارات تشد خلفها مدافع الميدان وأخرى تحمل الدبابات، رصدوها تتجه إلى محطة القطار. إذن فسيجعلونها جاهزة للاستخدام ضد المصريين مرة تالية. فقال عاطف لابد أن يتوقف ما يحدث وإلا جن أو مات من القهر ، وكان الكل ينتظر.

طار فوق مواقع القنطرة شرق تشكيل جوى مصرى فى مهمة مزدوجة للاستطلاع وضرب وتكديس المعدات التى داوم الإسرائيليون على نقلها شرقا. نجحت المهمة واستغرق تنفيذها دقائق قليلة،

استطاعوا فيها تدمير كمية من المعدات حول محطة الشحن وأحدثوا خسائر كبيرة فى أفراد العدو الاسرائيلى. لكن الإسرائيليون استطاعوا إصابة طائرة الطيار مرتضى الرفاعى الذى قفز بالمظلة قبل أن تنفجر الطائرة.

على الجانب الآخر كان النقيب عاطف لا يكاد ينام، بعدما فكر وقدر وخطط وصدق على تنفيذ المهمة التى كان هو قائدها ومنفذها ومعه أربعة من الزملاء من كتيبة الاستطلاع، يحملون معداتهم على أكتافهم وأرواحهم على راحات أيديهم، لا يبالون بشئ سوى أن ينجحوا فى المهمة الجديدة.
تحرك بهم القارب فى ظلام الليل وعبروا القناة شرقا والتفوا فى سيرهم من بعيد حول مواقع العدو حتى التقوا بالشيخ نعمان فى نقطة مقابلة كانوا قد حددوها قبلا. الشيخ نعمان كان قد أعد لهم من أيام كل ما طلبوه من ألغام ومفرقعات حصل عليها من تكديسات حول محطة القنطرة والذى لم تحرسه القوات الإسرائيلية بعناية.

استمر النقيب عاطف ثلاثة أيام فى الشرق يجهز للعملية، كل ليلة ينجز جزءا منها حتى أتم فى الليلة الأخيرة كل استعداداته. فى فجر اليوم الرابع كانت الانفجارات تتوالى بينما شحنة القطار تشتعل وقد نسفت كل تكديسات الذخيرة المشونة على الأرض والقطار، وجزء كبير من قضبان السكة الحديد، فأفسد عليهم الوليمة التى كانوا قد أعدوها لأنفسهم، وأصبح لديهم تلا من الحديد المنصهر وقطارا مدمرا بينما قتل معظم الحراس حول القطار فى تلك الليلة.

كان دليل داورية العودة هو نفسه الشيخ نعمان يسبقهم فوق جمل يتبعه الآخرون، والنقيب عاطف يسير فى المؤخرة ليحمى ظهورهم جميعا. كانوا يسيرون فى نفس الطريق الذى جاءوا منه، ولكن كان هناك اختلافا كبيرا، فقد كانوا عائدين وروحهم المعنوية عالية للغاية فرحين بالنصر الصغير الذى عملوه بأيديهم، بينما الشيخ نعمان كان يفكر فى الداورية التالية التى ربما كان عليه أن يصطحبها فى رحلة الدخول ويفكر كيف سيحصل لهم على كميات أخرى من الديناميت والجلجنايت والألغام ليستخدموها فى عملياتهم القادمة فإن وزنها كبير وعليه أن يجهزها لهم فى فترة قريبة.

على المعبر وفوق الضفة الغربية لقناة السويس استقبل الزملاء النقيب عاطف وجنوده، واحتضنوهم بقوة وصمت، ودلفوا فى ظلام الليل إلى عمق المواقع حيث كان فى استقبالهم الضباط والجنود.

المفاجأة أن رئيس استطلاع التشكيل كان هناك. وكانت مظاهرة استقبال للفاتحين وكأنهم حرروا سيناء كلها، فقد كانت أولى العمليات بعد أن استقرت الأوضاع، وارتفعت هامات تنظر للمستقبل وتتساءل عما يحمل بعد ذلك.

أصبح النقيب عاطف قاسما مشتركا فى كل الدوريات إلى الشرق فى القطاع الشمالى، فكان يحضر مع القادة تخطيط الدوريات ويقوم بالتدريب والتجهيز وتنظيم التعاون مع القوات التى ستدفع الداورية، والأخرى التى ستحميها بالنيران أثناء الذهاب والعودة. ثم يعود عاطف يرافقه كل أفراد داوريته ومعهم الأسرى والأسلحة والوثائق حتى أصبح الجميع يتفاءلون أنه سيكون قائدا لإغارتهم أو كمينهم على الضفة الشرقية، وكان له بصمة فى كل موقع على امتداد القناة ويسألونه ويستشيرونه فيما يراه فى مواقع العدو حتى يعدون له الأسلحة والمعدات والأدوات المناسبة.

فى كل مرة كان عاطف يعود تبدو عليه السعادة ولا يلبث أن تتملكه حالة الشرود والقلق، ثم ترتسم على محياه علامات الحزن، وعندما يسألونه كان يقول لن ارتاح أبدا إلا عندما أقضى عليهم كلهم وبالتأكيد لن أفعل ذلك وحدى، سنكون جميعا فى حرب قادمة، ولكن لا أدرى كيف ستحدث.

طالت الأيام والشهور، والكمائن والإغارات على طول الضفة الشرقية للقناة. ينفذها عاطف مع باقى الزملاء فى كل الوحدات. وبدأت أعمال القناصة يصيدون فيها جنود العدو فوق خط بارليف، كلما ظهر أحدهم بادروه بطلقة محكمة تنهى حياته وترعب الباقين حتى خلا الخط وخنادقهم وإختباوا فى العمق.

حتى تزايد رعبهم فنزعوا قضبان القطارات ورصوها سقفية فوق خنادقهم، وزادوها بأقفاص حديدية ملأوها حجارة أطنانا خمس طبقات أو أكثر بارتفاع عشرة أمتار اتقاء من انفجارات دانات المدفعية والصواريخ وقصفات الطيران. وحبسوا أنفسهم فى النقط القوية وجعلوا جنود المراقبة يرتدون الملابس الواقية من الرصاص حتى لا يصطادهم المصريون فأصبح جميعهم مرهقين ليل نهار.

ولم يكن عاطف ليهدأ أبدا فكان يتسلل دائما إلى المواقع يدرسها ويتعرف على تخطيطها وأساليب حمايتها ونقط القوة والضعف فيها ويرسمها فى خياله بدقة حتى إذا ما عاد مرة تالية مع داورية أو إغارة، فإنهم كانوا يجوسون خلال النقطة القوية أو الموقع كأنما هم فى نزهة، فيقتلون ويعودون بنصر يقولون دائما عنه أنه نصر صغير، يتطلعون أن تكون كل سيناء لهم ثانية.

الحركة الرابعة

شهور الاحتلال طالت حتى اكتملت ستة وسبعين، وزادت أياما عندما أعلنوا أن رؤية الهلال قد ثبتت وأن الغد صيام أول رمضان وفرح الناس والجنود وتناولوا سحورهم وأصبحوا يعدون لطعام الإفطار ككل أيام رمضان التى يعرفونها.
لكن لم تكن هذه الأيام لها نفس الطعم بعد أن أعلنت التعبئة العامة واتجه شباب مصر إلى الأقسام ومراكز التدريب والإمداد بالرجال، وكذلك شملت خطة التعبئة كل المصانع والشركات فأصبح إنتاجها وأعمالها فى اتجاه المجهود الحربى وحتى سيارات النقل والأتوبيسات.
واصبح السؤال فى كل شارع وبيت هل يعدون حقا للقتال؟

النقيب عاطف كان قد ترقى لرتبة الرائد، وكان فى موقعه يجهز خطة دفع عناصره فى عمق العدو لرصد تحركاته فى حالة اقتحام خط بارليف بعد عبور القناة والتقدم شرقا، شأنه كما كل تدريب على الخريطة أو على أرض مشابهة لمسرح العمليات. فى هذه المرة كان يحس أن فى الأمر شيئا. ووضع داورياته وخطوط سيرها والكمائن التى سوف ينفذونها فى العمق وخطة اللاسلكى والبدائل وشفرة الإرسال. ورقم الدوريات وجعل لها أسماء وحدد لهم وسائل الدفع. خاصة التى كان من المقرر لها أن تعبر خليج السويس واتجاه تحركها والدعم الذى تحصل عليه حتى لا تفاجأ الفرقة المشاة بالدبابات الإسرائيلية تداعبها من الجانب الأيمن لها والذى كان يقوده صديقه العقيد فوزى محسن، وتساءل بعد كل ذلك هل يعدون حقا للحرب؟ واحتار فى اختيار الإجابة لنفسه.

علامات الاستفهام تضخمت عند المصريين والعرب، وامتدت لتشمل العالم كله ليكون التساؤل الكبير عن استعداد مصر وإعلانها التعبئة. لقد رصدت الأقمار الصناعية من فوق الدلتا ومنطقة القناة تحركات القوات والدبابات والصواريخ وأجزاء الكبارى والطائرات فى دشمها وعلى الممرات. كانت التكنولوجيا تغطى كل المجهود المصرى لصالح إسرائيل، وكان السؤال الضخم عندهم وفى أمريكا وروسيا هل حقا مصر جادة فيما يحدث؟ أو أنها المناورة الكبرى؟
لم يكد القادة الإسرائيليون يعلنون لأنفسهم أن مصر لن تكون جادة أبدا فى هذا الاتجاه وأنها بالتأكيد غير قادرة على الفعل. وأن اليوم هو عيد الغفران ويجب أن يقضوا بعضه وسط أهلهم. وأنهم سيكونون على أهبة الاستعداد إلى جوار تليفوناتهم إذا استدعى الأمر ذلك، حتى انصرفوا فى

الواحدة ظهرا فى السادس من أكتوبر يمنون أنفسهم بعيد سعيد.

الحركة الخامسة

وكان عيدهم سعيدا على كل المصريين والعرب بعدها بقليل، فلم يكد عقرب الدقائق يكمل دورته فوق أى ساعة، حتى طارت كل مقاتلات مصر وقاذفاتها فى مجموعات من ثمانية أو إثنتى عشرة طائرة على خط الطيران صفر لتتلافى الرادارات والصواريخ، ولتعبر كلها قناة السويس على امتداد مائة وثلاثة وستين كيلو متر، هى مواجهة القوات وبعمق أكثر من مائة كيلو متر داخل سيناء.

فى ذات اللحظة أى قبل أربعة دقائق من الساعة الثانية بعد الظهر انطلقت الله أكبر من حناجر أكثر من سبعمائة وخمسين ألف جندى مصرى كانوا يحتلون مواقعهم الهجومية على الضفة الغربية لقناة السويس، ناظرين إلى السماء يتابعون طائراتهم فى طيرانها المنخفض فى إتجاة عمق العدو.

انطلقت منهم تسبيحة واحدة قوية رجت نفوسهم والأرض والمشاعر، لقد نادوا تسبيحتهم الله أكبر بكل الإيمان الواثق فى عون الله ونصره لهم. أسقطت الطائرات حمولاتها من الصواريخ والقنابل بتخطيط دقيق فوق مراكز القيادة والاتصالات والرادارات ومناطق الحشود، وقبلها مراكز الدفاع الجوى والصواريخ وتلاها النقط القوية على طول المواجهة، فى الوقت الذى انطلقت فيه النيران من فوهات ألفين من المدافع من كل الأعيرة فى أقصى معدل للضرب حتى أنه فى الدقيقة الأولى من القتال وحدها أطلقت عشرة آلاف قذيفة فى قصفات مركزة أصبحت تنتقل فوق المراكز والمواقع فى سيمفونية انتقام رائعة، أدارها ضباط مصريون أصروا أن ينهوا هذه الحكاية ويعيدون لمصر وجهها الأصيل، واستمروا يطلقون قصفات النيران متقطعة جعلت الإسرائيليين يعتقدون فى كل مرة أن هذه هى القصفة الأخيرة فيخرجون محاولين البدء فى القتال فيفاجأون بالسيل النيرانى فوقهم ثانية ليحبط أعمالهم وقوتهم وأمانيهم. وهكذا لم يعد لديهم بعد الدقائق أى أمل. وانطلقت إشارات الاستغاثة شرقا تستدعى الاحتياطات لنجدة القوات التى حاصرتها النيران المصرية.

مر على بداية التمهيد النيرانى عشرون دقيقة فقط عندما كان الجحيم المصرى مازال ينصب فوق رؤوسهم، والاستغاثات تنطلق

متتالية، فى هذه اللحظات استجاب الله لتسبيحة الجنود المصريين جميعا وأيدهم بنصره وجنوده، فأصبح الكل فى صلابة الصخر والصلب، فاندفعوا يؤدون مهامهم التى تدربوا عليها فى سنوات المرارة ليحسوا أنهم يعيدون تنفيذ الطابور العادى للاقتحام.

وكان أن نزع الله الخوف من قلوبهم وزرعه رعبا فى وجدان الإسرائيليين، فانهاروا عندما كانت الموجة الأولى للفراعين المصريين فى قواربهم المطاطية الصغيرة، وقد انشروا جميعا فوق سطح القناة، ولم ينفع الإسرائيليين ساعتها خزانات النابالم التى أعدوها لتشعل سطح القناة نارا، وخاب أملهم ،فقد سدها أبطال الصاعقة البحرية والضفادع البشرية فى ليلة الهجوم على طول المواجهة، فزادوا ندما ورعبا وقبعوا داخل النقط القوية حصونهم التى ظنوا أنها مانعتهم، حتى دخل عليهم أبناء مصر فاتحين النيران والمواقع، ليحصدوا نتيجة الصبر وتحمل الهزيمة وتدريب ست سنوات، فأفاضوا فى النيران وحصدوا الأرواح الإسرائيلية فى نصر غير مسبوق.

فر من بقى من الإسرائيليين تاركين المواقع والمعدات والأسلحة إلا قليلا، ودانات وغلالات المدفعية تمسح الأرض أمام الجنود تفجر الألغام والدبابات وتنسف المواقع وتسد المزاغل ويرتبك القادة والأفراد فتطيش ضرباتهم وتروح إلى هباء، ويزداد الرعب والانهيار ليتحول النصر كل دقيقة تمر إلى نصر أكبر وأحلى وأكثر بهجة ليسقط خط بارليف الأسطورة. قال الرائد عاطف لرجاله هكذا يكون النصر كبيرا.

كأنما كانت أمنيات الرائد عاطف وخواطره كلها رهن الإشارة فكلما تمنى تحقق ما طلب، فإن كل دورياته قد عبرت فى توقيتاتها واندفعت إلى مناطقها تحت ستر نيران الطيران والمدفعية، ووصلت إلى المربعات التى حددها لها، وأرسلت إشارتها المشفرة أنها ترى بوضوح الاحتياطات المعادية، وأبلغت المعلومات المطلوبة، فانهالت فوقهم النيران فذاقوها ساخنة فلم تتحرك من مكانها، والأخرى التى غامرت بالحركة كانت لها الكمائن بالمرصاد فأتت عليها، وأخذوا من الأسرى الكثير حتى لم يعد هناك قدرة لدى الوحدات لاستيعاب المزيد وبدأوا يرسلونهم إلى القاعدة فى الخلف، وهكذا كانت بلاغات عناصر الاستطلاع والداوريات خلف الخطوط تتوالى على الرائد عاطف، تكاد تكون واحدة فكلها تعلن أن القصف الجوى نجح وأن نيران المدفعية أحاطت بالعدو الذى تحرك شرقا.

ازداد قلق الرائد عاطف على داورية الجنوب التى يقودها الملازم فؤاد، وانتظر كثيرا إشارته اللاسلكية التى تأخرت. لقد رصدت القوات الإسرائيلية الداورية وطاردتها فى إتجاه القوات المصرية، وخشى الملازم فؤاد أن يدخل منطقة القوات من النقطة التى حددت له قبلا فتدخل خلفه الدبابات الإسرائيلية فتحدث خسائر، واستطاع أن يجذب نيران الدبابات التى تطارده إلى عرباته المدرعة فتركها فدمروها وراحوا يبحثون عن الجنود الذين اختفوا بسرعة فى المنطقة مضللين الدبابات الإسرائيلية التى تورطت فى الأرض السبخة على ساحل خليج السويس الشرقى بعد أن غرزت جنازيرها، وفى المساء كان الملازم فؤاد وكل أفراد داوريته فى أماكنهم بين زملائهم يتلقون مهمة جديدة من الرائد عاطف.

الحركة السادسة

قبل أن يلتقط العالم أنفاسه من أخبار القتال فى الشرق الأوسط على الضفة الشرقية للقناة، وقبل أن يتمالك الإسرائيليون أنفسهم، كانت المعديات تنقل الموجات التالية من الوحدات المقاتلة.
كان المهندسون العسكريون فى نفس الوقت يلقون فى القناة بأجزاء الكبارى العائمة واللنشات تساويها وتجرها الى الشاطئ الشرقى والذى نسفوا جزءا منه بمدافع المياه التى كانت مفاجأة، فأزالت قطعة منه بمجهود رائع لتنطلق الدبابات وحاملات الصواريخ إلى العمق وتصد احتياطيات العدو التى استطاعت الإفلات وبدأت تتحرك فاصطادها قاذفو "آر. بى. جى" والطيران.
تصدت الوحدات المدرعة تحمى رأس الكوبرى على طول المواجهة، وكان هناك شهداء مهدوا للنصر الكبير الذى تم فى ساعات، بعد أن مر ألفان وثلاثمائة وأربعة عشر يوما كانت فيها سيناء بعيدة عن عيون وأيدى أبنائها، وأعادوها فأخذت أبناءها بين أحضانها، وانتهى اليوم الأول للقتال وقد حدد المقاتل المصرى ملامح الأيام التالية ليدوم النصر أبدا.
هكذا صنع الرائد عاطف وزملاؤه المعجزة التى تمناها شعب مصر لتنقذه مما كان فيه، وعندما حدثت استعاد الكل الثقة والاتزان والاحترام، وكانت خطوة أولى على الطريق ثم عادت كل الأرض التى ضاعت، أعادها شباب مصر واستقاموا شامخين.

* * *

معــزوفة الانتماء

ليــل ذلك اليوم الكئيب لــم يكن أســود ، بـــل الليل كلـــه أصبح أحمر اللـــون عندمـــا انحل الرباط فى وجدانـــى بعد التحدى المهزوم ، ووجدت أنى ضعيف . رحت إليهـا ، كانت جالسة فاستقامت عندمـا رأتنـى ، وضعتـــنى على صدرها فرأيت عليـــه مهـدى وفراشـى ولحـدى ، وأرحت رأسى فانزاحت السحابات الســوداء عندمـا لمتنـى إليهـا بذراعيهـا تحاول إدخالي إلى ضلوعهـا .
ألقيت إليهـا بثقل أيامـى وهمومـى بينمـا يدهـا تربت فوق شعرى فى حنان ، فأخفيت ضعفـى وحيائـى أسفل ملامحـى وثيابـى .

رأيت وجههـا ارتسمت عليـه سفينة حولهـا حور البحر والمرجان والصدفات ، ومآذن ودفوف ونايات ، فهدهدت كل مشاعرى ، وامتدت يدى فى خيالى تحيط بخصرهـا فى ود وحنان وعرفان ، واكتشفت أن هناك دروبـا أخرى تتسع لأحزانـى وأحزان العالم كلـه معى . أمس أطلقت غدارتـــى ولم تصب ، ولم يخافوا ، فقط ارتعب الغشيم منهــم .

فتحت عينــيَّ ورأيت الغديـر يهدهد أيامهـا ، فوق جبهتهـا وجدت شمســـا ، وقمرا فوق شعرهـــا ، وشلالا ذهبيـــا يحيطهـــا ، وحمرة الوجنتين تكاد تحرقهـا .
أماطت شالهـا ولملمت شعــرهـا عن جبينهـا فلمحت هــــلالا كان لأهلهـــا توارثتـه الأجيال حتى هــلّ أمامـــى أتطلع إليــه بينمـا أناملـــى تقبلهـا فى احترام عظـــيم .

كان قد ضاع نصف نهار ذلك اليــوم الحزين ويدى علـــى زنادى سائرا مع رجالـــى غربا ، وقلوبنـا تهفـو للشرق ، والشمس نفسهـا تروح للمغيب .
أملنـا الاجتياز شرقـا ، سينـاء والحدود إلـى لا حدود ، تغمرنـا نشوة البطولة والفـــداء . أطلقونـا للشرق ، ثم نادوا توقفوا . فلما هممنـا فى اليوم الخامس طارت فوقنـا قاذفات عرجـاء ألـقت حمولاتهـا والنابالـم .
كنـا ما زلنـا نلهث من تقدمنـا للأمام ، ولم نكد نفيق حتى باغتنـا أمر بالانسحاب ، فضيعوا علينـا المجد ، وبتروا الحلـم .

فى الليل اختلفت الاتجاهات فتقدمنـــا ولكن إلى الغرب ، وتركنـــا كل مواقعنـــا ، وصرنـــا جميعـــا فوق الأرض أهدافـــا فحُصِدت الدبابات والأرواح سريعـــا ، ونجـــا كل من كان حظـــه هكذا ، فعــــاد بالحسرة والذكريات المرة ومشاهد الموت المجانـــى علـــــى الحدود والمحــــاور والممرات .
كان الأمــــر فتحركنـــــا بحثـــا عن حريتنـــا وإصبعان تشيران إلـــــى أعلى لنصر لم يتحقق ، وعيون لـــم أوفهـــا حقهـــــا ، سرت النــــار فى جسدى ، أرى آثـــــار أقدامـــــى الداميـــــة فوق الرمـــال وحول الأشـــــواك والألغــــام .

الرمـــــال والصخـــــور حولـــــى تعجبنـــــى فى معزوفـــة لونيـــة ليس هـــــذا وقتهـــــا ، ونافورات الدم انبثقت من الأجســـاد وانتهت ، وغيرهـــا يتفجـــر أو سيحدث ذلك بعد قليل لأى منـــا وربمـــا أرى إحداهـــا وسط رءوس متفجرة ، واختلط بلون البشرة الــــــدم والســــواد فوق رايـــــة ارتمــــــت قسرا على ذهب الرمـــال المخلصـــــة .

أراهـــا فى أبهـــى زينـــة بعد أن سبقتنـــى إلى اللـــــه رفاق الصحراء ، وسبقتنـــى غربـــا من كانت عزيمتهـــم أقل . علـــى البعد أرى أشجار الجزورينــــا والكافور والصفصاف تغسل شعرهـــا فى الترعـــة الحلوة الممتدة شمالا وجنوبـــا كمـــا فى كل نجوعهـــا وكفورهـــا ، وأدركت أنهـــا لن تتركنـــــــى أو أتركهـــا أبــــــدا .

بؤسا تناسينـــــاه ، بعده صبر عجيب . وتزامــــن ذلك مـــع طول البال والأنـــــاة لكل الشعب وأنـــــا فيهـــم ، وانبثاق الدم لم يدع خيالـــى أبدا .
عرفنـــــا قدرنـــــا وفهمنـــــا عدونـــا بعد أن وعينـــــا الدرس ، فعقدنــــا العزم .
أشارت لنـــا مودعـــــة توصى بالصلابـــة والقدرة ، حملت الرايـــة مع كل المحبين وكلهـــم شباب ، وألقينـــــا شالا من العزة على كتفيهـــا ، كنت عمرى كلـــه أهفو إليهـــا فأسرعت وأسرعنـــا جميعـــــا ، كانت تقف كعهدهـــــا فى شموخ ، وانحنت راكعـــــة تلثم رءوسنـــا ، فانحنيت أضع رأسى على جبينهـــا وأقبلهـــا على ضفتهـــا الشرقية أدعوهـــا للقيام ، فدعت بعضنـــا إلى فراشهـــم الأبدى مخضبين بدمــــاء انبثقت كريمـــــة ، صرخت إلـــى داخلـــى إنهـــم الأفضل ، وخطوت مع الباقين وقد ملأت الأنوف رائحـــة الرمـــال والعرق والدم والبارود والمجــــد .

مليون مقاتل كانوا أسرى الفكرة ، الانتصار أو الموت شهادة ، كانوا مهذبين مخلصين لأنفسهم والوطن ، فأتقنوا دورهم جادين واثقين فى قادتهم وسلاحهـــم ، بعدهـــا أصبحوا مثلا وقدوة لأجيال عديدة قادمـــة سوف تحمل لهـــم شعور الامتنـــان والفخـــر سنوات كثيرة بعد ذلك .

مليون حنجرة هتفت متوحدة اللــــه أكبر ، فكانت صلاة جامعـــة ظهر يوم من رمضـــان، وانطلقت مائتان من الطائرات وعشرة أضعافهـــا من المدفعيات ونصفهـــا من الصاروخيات ، وكلهـــا تزأر قاذفـــة الجحيم البشرى إلى الشرق لتدك عشرات الألوف من القذائف فوق مراكز القيادة والمطارات والقواعد الجوية والبحرية والتجمعات والتحصينات وحقول الألغـــام فى ثقـــة بالغـــة ، بارك اللـــــه فيهـــا .

تنجح موجـــة الأمل الأولـــى فى السيطرة على الشاطـــئ الشرقـــى ، فتشل عقولهـــم وأيديهـــم وتعمى أبصارهم ، ويتوالى نجاحنـــا وينمو ، وتتسع رؤوس الكبارى، وتمتد شرقا فنسينـــا أننا بشر ، فقط كنـــا جنودا نسترد أرضا وشرفـــا ومجدا ، أحدنـــا قال إنهـــا تنتظرنـــا من سنوات ست .آخر قال لن نتركهـــم أبدا وسوف نشوى مؤخراتهـــم عندمـــا يستديرون هاربين إلى الشرق ، وسأشعلهـــا بيدى ، وفعلناهـــا وابتسمنـــا فى تشف ثم لم نتوقف . اتحدت إرادة شعبنـــا ولم يدعنـــا نحارب المعركـــة وحدنـــا فانضم إلينـــا وقدم كل شئ لمجهـــود القتال بكل التأييد والدعـــم والحب والفخر والإعجاب والصبر فينـــا وعلينـــا .

رأيت أناســـا مصريين يضعون أوسمـــة وأكاليل فوق جراحـــى ، ويضمدونهـــا، ويـــهدئون حماســـى ولوعـــتى ، يمسحون على رأسى بالعطـــر والحنان ممتنين ، يشهـــدون بالتضحيـــة والفـــداء والمجـــد ، ورأيت فى العيون سلامـــا لكل الأيام وكل الناس وأمـــلا .

* * *

المتـــــراس

لم يكن مفهوما بالضبط ماذا تعنى الأوامر الصارمة للمقدم الشاذلى رئيس الإستطلاع للإنتهاء من الإستعداد قبل المغيب. فكل مرة يجرى التفتيش ينهيه باسما أن أنهينا الاجراءات كاملة بكفاءة فى وقت قياسى. واليوم يتابع بنفسه كل الأشياء بدقة متناهية ، يعرف أن الوقت متسع ويمد يده ليربط علب الذخيرة ، ثم يتأكد من محتويات جربنديات الجنود وعلب الطعام المحفوظ ، وحتى عدد الطلقات فى مسدسى الشخصى. بلغت دقته مداها عندما راح يراجع المهمة معى ، ويستمع لرقيب الفصيلة والعرفاء يتأكد من تفهمهم ، ثم يدقق ترددات اللاسلكى ، ويقيس شحن البطاريات بنفسه ، بل ويفحص مستوى الوقود فى البرمائيات المدرعة.

عدوى الحماس انتقلت لى وللجنود ، فتناوبنا التأكد من العتاد الفردى وتجهيزات المعدات والمركبات مرة بعد الأخرى ، ثم انتقلت ابتسامته إلينا فكنا جادين باسمين ، وقطرات العرق تغطى الوجوه فى نهار يوم من اكتوبر ، بينما كنا نتابع عقارب الساعة متوقعين الانتهاء قبل آذان المغرب فقد كنا صائمين.

نادى المقدم الشاذلى إنتباه ، ثم رفع يده بالتحية للقائد الذى أتم مروره على فصيلتى وأتى ليجلس معنا آمرا بطعام الافطار. عندما انتهينا وبدأت الأحاديث الجانبية قال تمامنا الأخير فى الثامنة بعد صلاة العشاء ، وجذب يدى فخرجت خلفه من ميس الجنود ليهمس فى أذنى أن المؤتمر سيكون بملجأ العمليات وخطا خارجا فى ثقة.

كان الهمس مفاجئا ، وتطورات الموقف حولنا كانت غريبة توحى أن فى الأمرشيئا. كنا نتابع الاذاعات والصحف ونعلم أن الموقف الدولى متوتر بعد إعلان التعبئة العامة ، وقد وصلت بالفعل دفعات الإمداد بالرجال فى اوتوبيسات مدنية ، ولوارى وشاحنات ملأت طريق السويس حاملة الإمدادات من كل نوع. الجميع وأنا فيهم كنا نتوقع نهاية المناورة السنوية كما فى كل مرة فيعود الجنود المستدعون إلى أعمالهم وتنتظم أجازاتنا وتهدأ الأعصاب.

أخفت القيادة قرار القتال ، وأفاضت فى التمويه والخداع ففتحت الأجازات ودفعت بفرق الترفيه إلى الخطوط الأمامية لإشاعة جو من الإسترخاء زادته فرق الكسل التى انتشرت على طول المواجهة ، فشدت شباك الكرة الطائرة وأهداف كرة القدم ، وآخرين يقشرون أعواد القصب ثم يقفزون فى مياه القناة كأنما انتهت كل الأعمال الجادة لدى جيش مصر. لاحظ ذلك عناصر مراقبة العدو فوق خط بارليف . كدنا نصدق ، لولا أننا نعلم أنه لابد من خطة للإخفاء. لكن كثافة إمدادات الذخيرة والوقود وبطاريات الصواريخ أرض أرض ومنصات إطلاق الصواريخ المضادة للطائرات طمأنت نفوسنا أن اللحظات قد اقتربت.

فى ملجأ العمليات تحت الأرض وقف القائد وإلى جانبه المقدم الشاذلى أمام الخريطة المجسمة يقول لقد أتممنا تدريباتنا ولم يبق سوى أن ننفذها بالذخيرة الحية على الأرض المخطط التنفيذ فوقها. بدا الكلام غريبا وأصبح من المفهوم أنه يتحدث عن سيناء. تجهمت ملامحه جادة قائلا الآن أمر القتال. كنا نعرف المحتوى ، ولكنه أصدره بطريقة مختلفة فاتسعت العيون والآذان والعقول تعى كلماته وأيقنا أن الأمر حقيقى تماما.

تتباين فى أنفسنا المشاعر وتتزاحم مغلفة بالدهشة والفرحة والإيمان. كنا نتوقع وننتظر من سنوات فقدرنا الحجم الحقيقى لقدرات الإسرائيليين. الآن يفاجئنا الأمر كأنما نحن حالمون بأمانى ومعجزات تتحقق بعد اعدادنا لمعركتنا. لا .. نحن نؤمن بالجنة لنا ، شهداء دون أرضنا وحقنا. نثق فى أنفسنا وقدراتنا وسلاحنا وقادتنا.

داوريات المتراس والعناد ستندفع الساعة صفر من النقط المحددة لها. وقد بدأ بالفعل فتح الثغرات فى حقول الألغام المصرية على الشاطئ الغربى للخليج وقناة السويس من خمسة عشر دقيقة مضت. وفى تمام منتصف الليل ستكون الثغرات المقابلة على الشاطئ الشرقى قد أتم

المهندسون العسكريون فتحها. شملت الخطة ترتيبا تنازليا لإبلاغ ساعة الصفر للقادة والوحدات والجنود. وكان لابد أن أتلقى الأمر قبلهم جميعا فسوف أعبر عند منتصف الليل قبل أربعة عشر ساعة من بدء الهجوم العام.
فى تنظيمكم للمعركة تأكدوا من ترتيب سير الحوادث ودور الأفراد فى كل مرحلة ، واحتمالات تصرف العدو مقابل تحركاتنا والنيران التى تتعرض لها قواته ، هكذا كان يتحدث القائد كما لو كنا مازلنا فى طابور التدريب. وكنت أظن أنى سأُدفع وحدى ولكن الخطة كانت تشمل داورية العناد على الجانب الأيسر للفرقة فى منطقة شرق الشلوفة حتى ممر الجدى شمالا مع باقى عناصر الاستطلاع خلف الخطوط.
ثم وجه الحديث إلىَ قائلا إنى أعتمد على داورية المتراس فهى الوحيدة المخطط لها العمل فى هذه المنطقة ويجب أن تراعى الدقة والاخفاء وكسب الوقت لإتاحة الفرصة للقوات التى نجحت فى الهجوم شرق القناة كى تدعم موقفها وتؤمن رأس الكوبرى تمهيدا لتطوير الهجوم ومطاردة قوات العدو المنسحبة فى إتجاه عمق سيناء ، كذلك عليك مراقبة الاحتياطى القريب للعدو الذى سيحاول توجية ضربات من إتجاه الجنوب إلى الجانب الأيمن للفرقة بغرض تفتيت المجهود الرئيسى فى معركة فرعية لتهيئة الظروف المناسبة لتدخل قوات الاحتياطى التكتيكى أو قواته الجوية. كذلك عليك تأكيد مهام داورياتك الفرعية متراس واحد وإثنين حسب أمر القتال وتنظيم التعاون. ثم إتجه إلى قائد داورية العناد يحدد أهدافه شمال ممر الجدى فوق الخريطة.

قال قائدى ينهى أمر القتال لقد أعطتكم مصر أفضل رجالها وكل مالديها من سلاح ومعدات ، وقد حان لمصر أن ترفع رأسها عاليا. اعتمدوا على الله وعلى أنفسكم ، فلن أستطيع معاونتكم وأنتم خلف الخطوط فى المرحلة الأولى من القتال.

تمضى الدقائق والساعات سريعة ، وتحل ظلمة الليل فنتحرك حتى نقطة الإنطلاق فى الموعد المحدد والقوات رابضة تكتم أنفاسها كما لو كانوا يهيئون الفرصة للعبور بأمان. يحين موعد التمام ، وتحتل فصيلتى موقعها الجديد خلف ساتر الدبابات المرتفع. الجميع صامتون متوترون إلا أنا هادئ ساكت. يثير ذلك جنودى ويتساءلون كيف أبدو هكذا ؟ إن إفطار القائد معهم والتفتيش الطويل الدقيق لم يكن ليثيرهم. لكن أدهشهم التحرك من منطقة التمركز إلى المنطقة الأمامية ثم إلى حافة الخليج فى الجنوب.

يحين الوقت لألقى أمر القتال إلى جنودى فى حضور المقدم الشاذلى. أنهيت الأمر بأن تمام الاستعداد قد شمل الرجال والأسلحة والمعدات. صاح رجالى فى عزة إنَا جاهزون للقتال متفهمون للمهمة التى تدربنا عليها كثيرا. يقف المقدم وسط الرجال ثم يقول تصدَّق. يزف إليهم الخبر الذى ينتظرون. والآن عليهم بالفعل عبور الخليج فى اتجاه الجنوب الشرقى ثم يتقدمون شرقا حتى المربع انتصار ، ونقوم بدفع نقطتين للملاحظة حول منطقة كتيبة دبابات العدو فى وادى سدر لرصد تحركاتها ، والابلاغ فور بدءها ، ومتابعة تقدمها عندما تحاول مهاجمة القوات التى نجحت فى العبور بغرض إحداث الخسائر فيها وتدميرها لإتاحة الفرصة للإحتياطى التكتيكى لقوات العدو جنوب القناة للتقدم واستعادة الأوضاع شرق القناة. لم يكن الرجال ليصدقوا مايسمعون فإنه يفوق كل أحلامهم.إنها الحرب. إذن حانت الساعة وسنبدأ فى منتصف الليل.

يبزغ القمر خلف القوات فيضيئ مياه الخليج. يتعانق عقربا الساعة عند منتصف الليل. يعانقنى المقدم الشاذلى ، يهمس وهو يربت على كتفى لا إله إلا الله. أكمل متفائلا محمد رسول الله ، نتوقع الشهادة فربما كان اللقاء الأخير. نخطوا معا ، يصيح فى جنودى ياأبطال سنتقابل فى الغد على أرض سيناء. يردون فى ثقة آمين. أكون أول من يركب البرمائية ، وأول من يبحر فى إتجاه الجنوب الشرقى . أرى المقدم الشاذلى يرفع ذراعيه بالتحية للرجال حتى يغيب فتصبح كل عيوننا للأمام وأرى مياه الخليج تتلألأ راقصة كأنما فرحة بنا فكان عبورنا كنزهة حالمة فى نور القمر فوق المياه الساكنة.
قبل ضوء الفجر سنكون قد أتممنا إخفاء البرمائيات ، والجنود قد احتلوا نقط الملاحظة يراقبون منتظرين الساعة الثانية بعد الظهر. كانت الشفاه تتمتم بسم الله وتستعين ، ثم قلنا جميعا توكلنا على الله وطلبنا التوفيق نرى الأفق مازال بعيدا.

لم يكن تحرك داورية متراس يتم بصعوبة ، فإن أجهزة الرؤية الليلية بالأشعة تحت الحمراء ساعدت على سرعة التقدم والمراقبة إلا أنه كان علينا دائما تأمين طريق التقدم فنتوقف لدفع عناصر منا تكتشف التباب والوديان متحمسين واستطعنا الوصول للمنطقة المحددة على الخريطة فى الوقت المناسب. وبسرعة أتممنا الحفر والإخفاء والتمويه للمعدات ، ودخلنا الحفر البرميلية المغطاة بقطع القماش المموه ووضعنا فوقها كوديات من الأعشاب الصحراوية إمعانا فى الإخفاء.

اكتشفت عندما لاح ضوء الفجر أنى تحمست كثيرا فى التقدم حتى أصبحنا فى مدى الضرب المباشر للدبابات ، ولولا ستر من الله

لسمعوا صوت محركات مركباتى ولكن الرياح كانت تهب من ناحيتهم فى إتجاهى ، والآن لم يعد فى مقدورى سوى الثبات. أصدرت الأوامر لمتراس واحد وإثنين بمنع الحركة والصوت فإن ذلك سيكشفنا مباشرة.

كما فى البيات الشتوى سكنّا فى مكمننا كاتمين للصوت والحركة ، وكان ذلك سهلا فقد تدربنا ، ولا نحتاج لطعام أو شراب فنحن فى العاشر من رمضان. ولأن كل شئ خطط له بدقة فقد مضت الأمور بسلام والساعة عقاربها صارت أبطأ ، ثم فجأة اشتعلت النيران فى مواقع الصواريخ ومراكز القيادة والمدفعية والإحتياطيات والنقط الحصينة عندما اقتحمت الطائرات تلقى بحمولاتها فوق كل شئ إسرائيلى كانوا قد صوروه فى طلعات الاستطلاع الأخيرة.

أمس عبرنا ضمن خطة داوريات خلف الخطوط فى سكون الليل بطائرات الهليوكبتر والبرمائيات. واليوم الفراعنة قادمون يكتسحون بنيران القاذفات والمقاتلات والصواريخ الخط الأسطورة. وتحت ستر هدير آلآف المدفعيات تسبح فوق القناة مئات القوارب مليئة بالرجال والأمل والتصميم على الشهادة ، والأرض أشعلوها لهبا ودخانا أسود اللون قد تصاعد من المواقع التى يدكون.
من اللاسلكى أسمع إشارات الداوريات أمام قواتنا متتالية ، تبلغ القيادة عن انهيارات النقط القوية وقوات العدو تفرمنها شرقا ، وقوات لهم تحصنت تحت الأرض ساكنة شلتها المفاجأة. أسمع عن داوريات انفتحت الأرض أمامها كيلومترات بعد أن تجمعت قوات العدو فى نقطها الحصينة أو عند احتياطياتها البعيدة غير قادرة على صد فيضان الجنود المصريين حولهم فقد انتشروا كالجراد فوق وداخل حصونهم يحصدون بنيران بنادقهم الصغيرة ماعجزت عنه تكنولوجيا الصواريخ والمدفعية ليطهروا الجيوب الباقية فيها.

الدبابات التى تواجهنى فى موقع وادى سدر كانت هدفا لغارات الطيران ضمن خطة ضرب الوحدات المدرعة ، فدمرت لهم دبابات أربع وثلاثة مدافع هاوتزر ذاتية الحركة علاوة على المنطقة الإدارية ، واشتعلت جميعا بما فيها مخزون الوقود فى حريق هائل ، وأنجز ذلك كله فى هجمة واحدة للقاذفات المصرية فهاج الموقع يحاول إسعاف جرحاه. ألقى الله على قلبى سكينة فكانت أعصابى هادئة ، أعرف أن طائراتنا حددت احداثيات المواقع بدقة ، وموقعى مدون على خرائط الطيارين بلون أخضر ، فأرسلت تقارير منتظمة لرئيس الاستطلاع أن جانبهم الأيمن تحت السيطرة الكاملة.

لما تمالكت قوات العدو وقدرت حجم هجوم القوات المصرية ، استطاعت تحريك بعض الاحتياطيات للقيام بالهجمات المضادة المحلية على طول مواقع خط بارليف. وكتيبة دبابات وادى سدر بدأت تسخن محركاتها وتكشف أغطيتها وترفع المشمعات التى تموه حفرها فاستطاعت داورية متراس واحد أن تحصى عدد الدبابات ، أما متراس إثنين فقد رصدت بسرعة العربات المدرعة ولوارى الذخيرة والإمداد والورش التى نجت من القصف الجوى وحدث ذلك ببساطة فقد أتى التدريب على أعمال خلف الخطوط بثمار جيدة حتى الآن ، فقدرت أن الكتيبة تستعد للتدخل فى أعمال القتال الدائرة ولم يصدر لها بعد الأمر بالتحرك كما هو متوقع فى إتجاه الشمال لتقتحم الجانب الأيمن للفرقة التاسعة عشر ، فقد نجح اللواء السابع مشاة فى إكمال عبور باقى عناصره وأصبح جميعه داخل رأس الكوبرى يقوده العقيد فوزى محسن.

وبينما أراقب من بيروسكوب القيادة تتصلب يدى فوق عجلاته. أنفاسى تتوقف ، أرى فى مواجهتى دبابة أدارت برجها وحولت مدفعها صوبى تماما. توقعت أن قائدها يدقق النظر فيما يرى ، وقد يكون قد اكتشفنى من وقت مضى. قدرت موقفى ، فإنى إذا تحركت ستكون كل داورية متراس فوق الأرض أمام أعينهم ومدافع كتيبة دبابات شبه كاملة تستطيع اصطيادنا ببساطة ، والأمر يتطلب الحكمة والمخاطرة المحسوبة. لم يكن قائد الموقع الإسرائيلى أقل ذكاء ، فقد تركنى بعد أن اكتشف مكانى لعله يستطيع أسرنا أحياء أو يدمرنا أو ربما فاز بأكثر من ذلك. على الفور أصدرت الأمر بالعمل كما فى طوابير التدريب ، لنتخلص من الموقف تحت ستر المباداة أو المفاجأة وسرعة التنفيذ بأساليب مبتكرة.

فجأة ينطلق متراس إثنين أمامهم بأقصى سرعة محاولا ترك المنطقة فى إتجاه الغرب لايدع فرصة لرامى دبابة حتى ولو كان قناصا أن يطلق دانة على هدف مراوغ متحرك يتلوى بمهارة ، ثم يتوقف بعيدا خارج مدى الضرب المباشر ، ويتخذ ساترا خلف تبة ارتفاعها يناسب الموقف ، ويدفع بمراقب فوق خط السماء ليلاحظ الميدان أمامه ، وأنا أتتبعه بعين والأخرى على الدبابة فى مواجهتى ، ويتملكنى العجب والغرور ، وكأن متراس إثنين لم يفعل شيئا فالدبابات لم تطلق دانة واحدة.

إن مايحدث خارج كل التوقع فأسرع بدفع متراس واحد ليلحق بزميله فينجح ويتخذ موقعا قريبا منه ، وكل ما تغير أن بعض الدبابات أدارت أبراجها تراقب من خلال تليسكوباتها الداورية تتفلت مندفعة غربا فى إتجاه الطريق الأسفلتى المؤدى لشرق السويس ، والكل يمسك الأنفاس أن تضيع منا فلا أستطيع أن أقدم لها معونة وسط كل هذه الدبابات المتحفزة.

يبدو ما نحن فيه كما لو كنا فى طابور لتطعيم المعركة نؤدية فى مناورة تدريب ، إلا أن القلوب الواجفة تخفق بشدة ، والأعصاب تتوتر أكثر وأصوات هجمات الطيران وإنفجارات قذائفها وقصفات غلالات المدفعية المصرية تدك بارليف فى إيقاعات متتالية كانت فى خلفية ما يحدث ، والدور علينا لنتبادل النيران دفاعا عن أنفسنا فقد اكتشفونا ويتابعون ما نفعل. نعم أحسسنا بالخوف ولكن قهرناه قبل أن يتملكنا ، فملكنا موقفنا وتحكمنا فيه وصرنا نفكر ونتحرك بشجاعة وجرأة وإحكام.

لم يبق فى مواجهة مدفع الدبابة سوى مركبتى المدرعة أنظر من خلال البيروسكوب أمامى منتظرا أن تطلق الدانة الأولى والأخيرة عند خروجى من الحفرة. ولا أستطيع بالفعل أن أدمر هذه الدبابة ، فإذا فعلت فإن نيران الموقع كله ستحيط بى وأفتح على نفسى أبواب الجحيم ، والمحرك دائر والسائق متحفز للإنطلاق لنلحق بعناصر داورية متراس التى سبقت فى إتجاه الطريق ، ولكن كيف أضمن السلامة فيما أنا مقدم عليه.

مغامرة أو مخاطرة ، فى لحظة أترجمها إلى أمر وفعل فأصدر الأمر لمتراس واحد وإثنين للتحرك ببطء شمالا ، فى وثبات سريعة كى يلفتوا مدافع الدبابات وتليسكوباتها إليهم ، بينما أنطلق على الفور خارجا فى أثرهما لألحق برجالى ، والسائق لا يدخر وسعا يضغط دواسة الوقود للمدى ، يناور على الأرض تضاريسها ، ويناور دانات المدافع التى لم تنطلق حتى هذه اللحظة.

تركونى أيضا أفوز بمسافة الأمان حتى صرت على خط واحد مع باقى داورياتى يكاد قلبى ينفجر من الإنفعال حائرا أتساءل لماذا تركونا ؟ ثم كيف أتاحوا الفرصة لألحق برجالى دون طلقة واحدة وكان فى الإمكان أسرنا أو تدميرنا فقد كنا إلى جوارهم تماما ؟ وسبّحنا جميعا الحمد لله.

على الفور تنبهت أنى نفذت بالفعل مرحلة من خطة أعدها القائد الإسرائيلى فلم يكن ليدعنى أفوز مجانا أبدا. فقد تركنى ليتتبع مسارى متحركا خلفى فى وثبات وقد أطلق فىأثرى داورية من ثلاث دبابات. إذن فقد خصص لكل مركبة من داورية متراس دبابة تقوم على مراقبتها والتعامل معها إذا لزم.

كل المعلومات عن قوة العدو وإمكانياته وحركته أرسلتها للمقدم الشاذلى فور الحصول عليها ولم يبق سوى أن أداوم إشاراتى الروتينية باستمرار الموقف بالضغط على ريشة جهاز الإرسال دون إنتظار لتمامات الإستقبال ، أعرف أنه يتابعنى. وعلى الجهاز اللاسلكى الآخر أسمع إشارات باقى داوريات الإستطلاع التى تعمل خلف الخطوط أو أمام القوات واستطيع الإلمام بالموقف ، فإن كتائب قتال اللواء السابع على الجانب الأيمن للفرقة نجحت تماما وبعمق ثلاث كيلومترات على مواجهة اللواء بالكامل ، واحتوت كل النقط الحصينة فى قطاعها ، عدا نقطة لسان بور توفيق التى تحاصرها قوات الصاعقة بقيادة الرائد زغلول فتحى الذى يسيطر على الموقف بكفاءة ، ويطمع أن يخرج إليه كل طاقم الموقع فيأسرهم أحياء ، ويصدق قائده علي خطته التى رآها جيدة.

تقترب الدبابات الثلاث حتى يصبح الفاصل بيننا كيلومتر واحد ، تلوح على الأفق كتيبة الدبابات فى تشكيل ما قبل المعركة فى قولات سرايا متباعدة مركز قيادتها فى منتصفها مستعدة للإقتحام بعد صدور الأمر بأربعة دقائق فقط .
ذلك لا يفوتنى فقد درست كل ذلك فى الكلية الحربية ومدرسة المدرعات ودورة الإستطلاع التى حصلت عليها مؤخرا. إذن فهم يستعدون فور أن أصل إلى حدود الجانب الأيمن للواء السابع أن يقتحموا خلفى فى ضربة قوية تخترق جنب الفرقة التاسعة عشر كلها وينسفون رأس الكوبرى الذى حلمنا به على مدى كل سنوات حرب الإستنزاف. ذلك لن يكون. المقدم الشاذلى يضحك عبر اللاسلكى ويقول إنها لعبة صغيرة سيصيدها الطيران ، وإن أفلتوا فإن غلالات المدفعية ستتعامل معها ، وإذا كان حظهم جيدا ووصلوا إلى قرب المواقع فإن نيران صواريخ المولوديكا سوف تعزف عليهم ألحانا لن ينسوها إن بقوا أحياء.

تبلغ المدى جرأة قائد فصيلة الدبابات فيقترب إلى ربعمائة متر تظهر فى أجهزة الرؤية والمراقبة كأنها مائة فقط. أكاد أرى ملامح الإسرائيليين يشيرون إلى داوريات متراس يحلمون أن يطاردونها بقوة ضاغطين حتى تنضم إلى الجانب الأيمن للواء السابع ، يعتقدون أننا سوف نقيد نيران المدفعيات حتى تدخل داورية متراس إلى نطاق الفرقة ، فتنتهز الدبابات الإسرائيلية منطلقة فى أثرى إلى عمق رأس الكوبرى فتدمره من الداخل.

أقدر موقفى بسرعة ، والمسافة الباقية تسمح بمتابعة التفكير فى المأزق ، فأنا لن أدخلهم خلفى ، ولن أتوقف ليأسروا رجالى. لابد أن

تدور معركة أكسب فيها وقتا فهذه مهمتى تماما ، أكاد أطلب معجزة من السماء توقف كل الحركة فى القطاع الذى أنا فوقه.

عناصرى تتحرك على وثبات ، محتفظا بالفاصل بينى وبين الدبابات التى تتابعنا حتى وصلنا إلى سهل ممتد صوب الساحل يضيق عنده الشاطئ الشرقى للخليج مقتربا من الطريق الأسفلتى فى منطقة سبخة رمالها رخوة أحاول جرهم إليها. فإنى بمركباتى البرمائية أستطيع التقدم فوقها وتعجز الدبابات الثقيلة عن الدخول فيها ، فأنطلق شمالا ، أو أقفز إلى الخليج متجها إلى السويس.

ما أفعله يتطلب الأناة والثقة والحزم ، وإلا ضاع منى الرجال والمهمة معا. وقد حان وقت الحسم فالوقت يتآكل. أقرر استخدام اللاسلكى مفتوحا بلا تمويه مباشرا مع متراس واحد وإثنين ومع رئيس الإستطلاع أيضا ، أتحدث بانطلاق تاركا كود المعركة جانبا أعرف أن حركتى ستكون أسرع من رد فعل الدبابات التى تطاردنى. المقدم الشاذلى يوافقنى وينقل ما يدور للعقيد فوزى الذى حشد نيرانه المضادة للدبابات ويبلغه أن قائد الفرقة يتابع تحرك إحتياطى دبابات العدو القادمة من إتجاه الجنوب باهتمام كبير.

كلمات قليلة فى جهاز اللاسلكى ويعرف رجالى ما سيفعلونه. ننطلق بسرعة فوق الأرض الرخوة . تتوقف المركبات واحدة بعد الأخرى ، والدبابات عند الطريق الأسفلتى تتابع ما نحن فيه ، حتى ثبتت مركباتى الثلاث تثير الرمال حول عجلاتها توحى بتورطنا فى منطقة الغرز.

إشارة منى أسمع بعدها تمام الإستعداد. لم يكن قائد فصيلة الدبابات المطاردة يتوقع أن كل مركبة أمامه يقبع وراءها قاذف آر.بى.جى أحكم تصويبه. تنطلق القذائف فتشتعل الدبابات الثلاث معا فى لحظة. يقفز رجالى إلى مركباتهم. يقودونها بخفة حركتها فتكاد تطير فوق الطريق الأسفلت. أراهم أمامى فهودا رائعين منطلقين بعدما نجحت خدعتهم ليبتعدوا بما يكفى للأمان قبلما تلحقنا قوات العدو.

تندفع كتيبة الدبابات ينفذون تخطيطهم. يحاولون تضييق الفجوة بيننا ليلحقوا بالدخول ، ولم يدر بخلد قائدها أن المصريين قد أعدوا كمينا بالغ القسوة.
يقتربون وقواتنا الجوية دفعت بالقاذفات تظهر فوقهم تمطرهم قنابل ثقيلة حارقة ، تليها طائرات الهيلوكوبتر حاملة الصواريخ الموجهة تطلقها

عليهم ، ومن أمامهم نيران الستائر المضادة للدبابات خفيفة الحركة للواء السابع تصيدهم فتهمد دباباتهم محترقة أمامنا ، ويعود جنوبا جزء منها يحمل الجرحى ، لايصدقون النجاة بعد أن فقدوا أكثر من نصف قوتهم فى دقائق دارت فيها معركة متوقعة كنا خططنا لها من قبل نحن وهم.

مناورة خروجنا من جوار كتيبة الدبابات كانت أشبه بالمعجزة. تفوقها المطاردة الصغيرة التى استغرقت ربع الساعة فقط التى كنا نحتاجها ، وطالت كأنما دهرا كانت ، ومن المؤكد أن الله معنا يوفقنا وأتم نعمته علينا فنصرنا.

استقبلنا المقدم عبد الحميد الشاذلى فى مركز القيادة. وبالطبع كان يبدو علينا الارهاق ولكنه لم يأبه لذلك. سمعت العقيد فوزى محسن فى جهاز اللاسلكى يهنئنى ورجالى بعبارات مؤثرة لم يهتم بها قائدى فقد كان مشغولا يجهز بين يديه خريطة أمر قتال جديد . وسوف يدفع داورية متراس للعمل بإتجاه جبل المر فى قطاع العقيد الفاتح كريم ، فإن فى مواجهته كتيبة مشاة للعدو دعمتها عناصر الدبابات والمدفعية تقاوم تقدم احدى وحدات لوائه الثانى المشاة.
انطلق إلى رجالى فأزف إليهم البشرى ، ثم أنظم التعاون مع باقى عناصرالقتال لتحقيق المهمة الجديدة. أجدنى منشرح الصدر ، سعيدا أدندن أغنية أحببتها دائما .. والله زمان ياسلاحى.. أحس أن قامتى صارت أكثر طولا وأن رأسى ارتفعت عاليا وابتسامة الرضا ارتسمت على وجهى .

***

شرق الفـــــــــردان

فور أن رفع قصف المدفعية غلالتة الأولى من فوق الحد الأمامى لدفاعات بارليف ، وقبل أن تبدأ القصفة الثانية ، اندفعت قوارب مطاطية بمحركات قوية تحمل قوة الكمين لتندفع شرقا بأقصى سرعة خلال الثغرات بين مواقع العدو ، تحميها نيران القوات الجوية تقصف احتياطيات العدو القريبة والتكتيكية . تثبتها فى مواقعها ، حتى لاتتدخل فى خط سير كمين يوسف عمر الذى يتحرك مترجلا بأقصى سرعة ، ليتمكن من احتلال موقعه ، بغرض إعاقة تقدم القوات الاسرائيلية ، والمخطط لها هجماتها المضادة على القوات المصرية التى تنجح فى عبور القناة محاولة انشاء رأس كوبرى شرق الشلوفة.

يوسف عمر أحد أبطال الصاعقة يقود كمينه المزودة بعدد لابأس به من القواذف المضادة للدبابات وعناصر من المهندسين العسكريين وكمية مناسبة من الألغام وعقولا واعية لامعة متفاهمة بالاشارة والنظرة والكلمة ، يعرفون ما سيفعلون . وصلت قوة الكمين إلى مكانها المحدد مسبقا فى التوقيت المضبوط وإتخذ مكانه شمال وجنوب الطريق على الهيئات الحاكمة وفى العمق منطقة ضاق فيها الوادى وإلتف الطريق ، وموهوا مواقعهم حتى طال الوقت عليهم فلم تبدأ قوة العدو الرئيسية حركتها بعد.

ينادى القائد يوسف ضباطه باللاسلكى ، فيردون عليه أنهم قد مللو الانتظار ، فقد مرت ساعة وراء الأخرى ، ولم يرصدوا سوى عربات ولوارى ودبابات فردية تتجه غربا ، وعربات الأسعاف تحمل الجرحى الإسرائيليين تتجه بهم شرقا فى أتجاه مستشفياتهم الميدانية ، والهدف الرئيسى لم يظهر بعد. عبر موجات اللاسلكى القائد يوسف يرسل تقريره إلى قائد المجموعـــة أن كل ما خططوه قد نفــذ ، وينتظرون الهدف ، ويرسل القائد إليه إشارته يناشده المزيد من الصبر. كانت قوات الفرقتين الثانية والثامنة عشر المشاة ، قد أقامت بالفعل رؤوس كبارى شرق القناة وتعبر الوحدات المشاة موجاتها الاولى والثانية والثالثة ، وبدأ المهندسون العسكريون فى تركيب الكبارى العائمة تمهيدا لمرور الدبابات الثقيلة فوقها ، بينما صواريخ الطيران وقنابلة تدك الوحدات فى العمق وتكثيفها بتجمعات نيران المدفعية وغلالاتها الحارقة.

كل شىء كان يمضى كما مخطط له بلا عوائق ، خسائر القوات المصرية لاتكاد تذكر، فربما انقلبت سيارة مسرعة أو أصيب جندى بشظية ولم يذكر أحد أن هناك شهداء بعد فى الساعات الأولى.
قصف الطيران كان مركزا على مراكز القيادة والاحتياطيات خفيفة الحركة ومواقع الصواريخ والمدفعيه الإسرائيلية ، لذا كان من الصعب أن تتحرك القوات الاسرائيلية خفيفة الحركة غربا تاركة حفرها التى تحميها من الجحيم لتخرج منها فوق سطح الأرض مغامره لتقدم النجده لقوات نسقها الأول.

طال الوقت على جنود الكمين والقائد يوسف يمر على رجاله يقوى عزيمتهم حتى مل هو الآخر ، وعندما رفع نظارة الميدان ليراقب الطريق وجد قافلة من حاملات الصواريخ المضادة للدبابات مكونه من أربع عربات تتقدم غربا فى أتجاه رأس الكوبرى.

اشارة الاستعداد . دخلت القوة المعادية نطاق الكمين . انتظروا حتى كانت أمامهم تماما . انفجرت عبوة مجهزة وسط الأسفلت . توقفت القوة ونزل جنودهم غير متوقعين والرعب يملأ قلوبهم رافعين أيديهم يأملون النجاه بأرواحهم. لم يكن ذلك فى الحسبان ، وببساطه كان لديهم سته عشر أسيرا منهم ضابطين.
قفز رجال الصاعقة فوق العربات الصاروخية وقادوها بمهارة ليخفوها خلف تبة قريبة ، وآخرون أزالوا مكان الانفجار ووضعوا عبوة جديدة مكانها وكأن شيئا لم يكن . فقط نقص عدد رجال الصاعقة الذين ينتجون النيران فردين هما طاقم الحراسة على الأسرى الجالسين إلى جوار معداتهم لايكادون يتحركون من فرط الهول . طافت الفكرة طارئه فعالة كررها القائد يوسف ورجاله يصطادون العربات التى تمر أمام الكمين ولم يكونوا فى حاجة لانفجار لغم أو عبوة كان يكفى أن يظهر واحد منهم معترضا العربة القادمة فتتوقف لينضم راكبوها إلى مجموعة الأسرى.
أسر الكمين سته وثلاثون أسيرا اسرائيليا بكامل عتادهم ، وبعضهم يتكلم الإنجليزية وآخرون العربية ، مما سهل مهمه قيادتهم.

كادت الشمس تغيب لينتهى اليوم الأول قتال من عمليات اكتوبر ولم يطلق رجال الكمين طلقة واحدة بعد ، عندما لاحت فصيلة دبابات تتقدم بسرعه لتقدم المعونة لاحدى وحداتهم . ساعتها نبض قلب القائد يوسف وأرسل نبضاته للرجال وكانت معركه صغيرة دمر فيها للعدو

دبابات ثلاث وقتل سبعه أفراد منهم وأسر خمسه آخرون انضموا لرفاقهم الأسرى.

صدر الأمر الأخير للقائد يوسف . ينسحب الكمين فورا إلى الغرب ليدخل ضمن قوات رأس الكوبرى بعد تمام احتلاله لمواقعه ، فقد دمر الطيران المصرى جزءا كبيرا من قوة العدو خفيفة الحركة فى منطقة تمركزها فأعاق تنفيذ خططهم.

مؤتمر سريع عقده يوسف لضباطه وقررو تدمير المعدات الاسرائيلئة واستخدموا مدفع دبابة اسرائيلية فى تدمير المعدات . فجأة حاول بعض الأسرى الحصول على أسلحتهم مغافلين حراسهم والفرار إلا أن رجال الصاعقة بادروهم فسقط أكثر من نصفهم قتلى على الفور بينما استسلم تسعه عشر أسيرا استسلاما ذليلا ساروا بين رجال الصاعقة بلا أسلحة ولامعدات ، يدفع الرجال الأسرى بأطراف بنادقهم ليحثوا السير غربا فى إتجاه القوات المصرية وقطعوا المسافة فى ثلاث ساعات كاملة وتبادل القائد يوسف اشاراته اللاسلكية والضوئية مع قائد المجموعة ليدخل إليه مباشرة وسط القوات المصرية عندما كان المؤذن يرفع آذان العشاء لليوم السادس من اكتوبر عام ١٩٧٣.

*　　　*　　　*

شرق البلاد

شريط طويل من الصور الجوية لمنطقة كثيب الدرب يدرسونه كل أسبوعين . يتم إعادة التصوير دوريا لتحديد التغيرات فى طبيعة تكوين هذه المنطقة . على أرض مشابهه شرق القاهرة فى منطقة الغرود الرملية الناعمة تغوص فيها أقدام الجنود وحمولتهم الثقيلة من الاسلحة والذخيرة والعتاد ، يتساقط عرقهم على وجوههم من المجهود والاجهاد . يتجمعون كل مساء حول الطعام يتبادلون الحديث الذى يدور غالبا عن قسوة التدريب . يتباهون بالأوزان التى يحملونها والمسافات التى يقطعونها جريا ومشيا فى دورياتهم.

لم يكن هؤلاء الرجال عاديون ، اختاروهم من مراكز التجنيد أبطالا فى كامل لياقتهم البدنية والصحية ومروا فى دورات التدريب القاسية يتبارون فى أدائها ، يتطلعون أن يتوج جهدهم فى نهاية الدورة الأخيرة بحملهم شارة الصاعقة السوداء . التدريب هذة المرة مركز جدا وجاد للغاية ، وقائدهم علاء الدين لايترك مجالا إلا بعد أن يصلوا فيه الى درجة الاحتراف فى العمل فرادى أو مجموعات صغيرة ، أو عندما يكون الجميع فى مهمة ينفذونها متكاملين.

التحرك من منطقة التمركز ليلة العشرين من سبتمبر عام ثلاثة وسبعين إلى منطقة مؤقتة يتمون فيها تحربة بالذخيرة الحية تنتهى فى منطقة معسكرات قديمه بجوار قرية أبو خليفة تبعد عن القناة كيلومترين فقط . كل ليلة تتقدم قوات علاء الدين فى سكون الليل لتعبر جزيرة البلاح ويجهزون لهم مواقع على شاطئها الشرقى ، تاركين بعض نقط المراقبة ، ثم يعودون ليلا الى معسكر أبو خليفة.

صدر الأمر برفع درجة الاستعداد ، ثم التحرك إلى الحد الأمامى لجزيرة البلاح . نفخوا القوارب ليلا فى أربعة ليال . يدخلونها فى حفرها الصندوقية المواجهة للعدو ثم يغطونها بالمشمعات المموهة ويلقون فوقها بعض الاعشاب والرمال الجافة ثم يختفون فى حفرهم الرملية والملاجىء كل ساعات النهار بلا حركة كما فى البيات الشتوى ، وتظهر جزيرة البلاح للمجهود الجوى وعناصر المراقبة الأرضية أنها خالية من أى قوات.

تحفز الرجال فى الملاجىء والحفر ، وكلهم يراقبون عقارب الساعة وقلوبهم خافقة . كلهم أمل أن تدور عقارب الساعة حتى تحين الثانية بعد ظهر السادس من اكتوبر . رغم التوتر والتوقع إلا أنه عندما انطلقت الطائرات عابرة قناة السويس على خط الطيران صفر لا تعلو فوق سطح الارض أكثر من ثلاثين مترا حتى لاتظهر على شاشات الرادار ، كانت المفاجأة للجميع أن كانت الطائرات فوقهم تماما ، دوى محركاتها يصرخ بقوة يدفعها للشرق لترتفع قليلا وتسقط بعض الجحيم على مراكز القيادة والسيطرة والاحتياطات ومواقع الصواريخ والمدفعية . السرب التالى من الطائرات أسقط حمولاته فوق النقط الحصينه لخط بارليف لتنفجر حقول الالغام حولها وتدمر بعضها وتسكت اسلحتهم وأجهزتهم اللاسلكية وقبلها عقول الاسرائليين المشدوهين من الحدث الكبير.

جنود علاء الدين لم يكن ينقصهم إلا إشارته . وانطلقوا بعدها الى قواربهم ذات المحركات القوية نازعين عنها أغطية التمويه وحملوها جريا الى الماء . الرقيب عبد الرازق قفز داخل قاربه ، يده تدير المحرك بينما يتقافز الرجال ركوبا بمعداتهم وشداتهم ، وفى لمح البصر كان القارب فى عرض القناه يندفع شرقا يحاذية ثلاث قوراب أخرى يقودها المقاتلون حتى وصلوا الى البر الشرقى للقناة . سرعان ماكانوا يتسلقون الميل الغربى لساتر القناه كما العفاريت المموهه فقد كانت ملابسهم وعتادهم وأسلحتهم وجوههم مموهه تماما استعدادا للمهمه القادمه كل قارب يحمل عشرين مقاتلا يسبح بهم فوق الماء كالصاروخ تدفعه امنيات ودعوات مصر كلها.

تجمعت قوة كمين علاء الدين . لم يكن العدد يهددهم على الاطلاق ، فقد عبروا في الفاصل بين نقطتين قويتين مشغولتين بقتال عناصر المشاه المصرية عندما كانوا يقتحمونها فى المواجهة جنوب وشمال كمين علاء الدين الذى تقدم بسرعة الى الشمال الشرقى يتسابقون لكسب أرض جديدة.

نحن محترفون . الطلقة تساوى إنسان . دانة القاذف تساوى دبابة أو عربة مدرعة ، ودفعه نيران الرشاش لابد أن تحصد عددا مناسبا من جنود العدو . اذن الطلقة فى مقتل . الذخيرة محدودة عندما نكون فى العمق ولامجال للامدادات . سنقاتل بما معنا فقط وبه ننتصر . هكذا كانت فلسفة علاء الدين منذ بدأ تدريبهم وحتى اجتماعه برجاله ليله السادس من اكتوبر ، ولم ينس كلمات على هيكل قائد المجموعة عندما قال تركت

لكم حريه التدريب والتجهيز للمهمة ، ولو لم تكونوا قادة ناجحين لما أخترتكم للعمل فى مجموعتى.

مرت خمسة وسبعون دقيقة عندما وصلت قوه كمين علاء الدين سرية من الصاعقة كاملة المعدات إلى بئر أبو العروق . راحة قصيرة من السير . يعاودون فيها التأكد من تمام أسلحتهم وشداتهم والأدوات . يدققون خط السير والاشارات والخطة.المقاتل محمد غريب نظر فى ساعته ثم قال حانت صلاة العصر يا رجال . انقسم الرجال إلى فريقين أحدهما وقف للحراسه والباقى يصلون خلف إمامهم قائدهم علاء الدين الذى تحمس عندما كان يقرأ الفاتحة جهرا وهتف الرجال آمين يصلون قصرا مطمئنين فلم يكن بالمنطقة جندى اسرائيلى واحد ثم تبادلوا الحراسة والصلاة.

قال المقاتل عطية رشاد ينصر دينك يا حضرة الرائد علاء فقد كانت أول صلاة فى سيناء.ارتاح الرجال وتجهزوا للسير، بعد أن صلوا ومرت عشرون دقيقة كاملة ، وآن الأوان لمواصلة السير فى إتجاه كثيب الدرب ليكونوا هناك بعد آخر ضوء مباشره ، وبدأوا يجهزون الموقع لاستقبال قوة العدو التى ينتظرون وصولها قبل التاسعة مساء .

كان طبيعيا أن ينعدم لدى الرجال الشعور بالقلق والتوتر . وانتظمت الحركة والمسافات ويختفى جزء من الجنود كل ربع ساعة حتى كان الجميع تماما تحت سطح الأرض يبعدون عن الطريق خمسة عشر مترا فقط ، يحتلونه على الميل الغربى له عندما يدور متجها الى الغرب تماما. احتفظ الأبطال بطعام يكفى يومهم فقط ، وتركوا باقى المؤونة عند بئر أبو العروق ، فهم يعرفون أنهم سيعودون خلال ساعات إلى رأس الكوبرى وتخففوا من الاحمال الزائدة . نقط المراقبة احتلت أماكنها لايظهر منها غير عيون بيروسكوبات الرؤية الليلية ، ينظرون خلالها بسرعة ثم يبتعدون حتى لاتلمع عيونهم خلاله . علاء الدين لم يترك أى شىء للصدفة ، دربهم على المواقف فقد كانوا يتبادلون التدريب قسمين أحدهم يقوم بدور العدو ويقدم تقريره عما كان ، ثم يتبادلون الأدوار . الليلة حددو المهام ونقطة المقابلة الخلفية والقريبة فى مراجعة سريعة لاينقصها سوى العدو.

بدأ القلق يساور علاء الدين عندما تأخرت قوة العدو عن موعدها المتوقع . يعرف أنها لواء مدرع كامل التسليح والتدعيم ، سيتقدم غربا ليوقف الطوفان المصرى القادم عبر القناة ، بعد أن سقطت معظم النقط

القوية ، وانهارت الدفاعات ، وتقلصت أعمال الاحتياطيات القريبة فى نجدة قواتهم.

جنازير هامسة على البعد سمعها المراقب عندما كان يضع أذنه فوق الأرض يتسمع . المساحة أكثر من سبعة كيلومترات . اذن عناصر الاستطلاع ستدخل إلى مدى المراقبه بعد قليل . علاء الدين أصدر اشارة الاستعداد.
كانت عربات العدو الخفيفة لعناصر استطلاعه منطلقة بسرعة فوق الطريق . أنوارها مطفأة ، وأجهزة الرؤية الليلية تمسح ميدان الرؤية أمامها وحولها يراقبون الأرض ، وشعاع منها ثابت يجرى فوق الأرض يستخدمونه للمحافظة على الاتجاه .
ابتعد الرجال عن أجهزة الرؤية الليلة وراحت أيديهم على أسلحتهم ، وانطلقت قذيفتين فقط من الـ ..آر.. بى.. جى ، واحدة أطلقها كمال والأخرى كانت من قاذف رياض ولم يكونوا فى حاجة إلى أن يمطروا العربات بطلقات الأسلحة الصغيرة فقد قتل كل من كان فى عربات الاستطلاع . توتر الرجال المصريون فقد بدأت العملية . يطمئنهم حسن تخطيط قائدهم عندما اختار موقع الكمين فى الميل الغربى للكثيب فإن العدو القادم لن يتوقع مكانه أبدا.

انقطع اتصال عربات الاستطلاع بالقوة الرئيسية للواء المدرع الاسرائيلى الذى بادر بدفع داوريه أخرى تضم أربعة دبابات . هذه المرة للحاق بعناصر الاستطلاع لنجدتها فقد رصدوا الانفجارات التى حدثت.
تقدمت الدبابات على الطريق بسرعة عشرون كيلومتر يعتبرها علاء الدين مناسبة لضبط الضرب . وعندما كانت الدبابات تنزلق هابطة كثيب الدرب ، أحاطتها غلالة كثيفة من باعثات الدخان أطلقها رجال الكتيبة ، فى نفس الوقت كانت إثنتى عشرقذيفة تخترق جدار الدبابات باتون الامريكية فتفجرها ويقفز أطقمها ليقبض أرواحهم عليهم رجال الصاعقة بنيران الرشاشات تحصدهم على الفور.
كانت الاشارات متبادلة بين علاء الدين وقائده على هيكل يهنئه على نجاح الكمين فى هذة المرحلة.

توقف اللواء المدرع عن التقدم على الطريق ، وفتح تشكيلاته بسرعة بعد أن تأكد من وصول القوات المصرية إلى منطقه كثيب الدرب ، وتدميرها عناصر استطلاعه وجزءا من كتيبة مقدمته ، واضطر القائد الاسرائيلى أن يؤجل التقدم حتى الصباح حتى لايتورط فى قتال أعمى مع قوات لم يدرسها بعد فلم يتبق على ضوء الفجر أكثر من ساعتين.

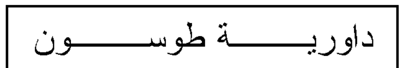
هكذا تم ايقاف تقدم العدو وكان ذلك هو الهدف الرئيسى لكمين علاء الدين ، فقد أتاح بنجاحه الفرصة لقوات الفرقة الثامنه عشرة من إتمام احتلال رأس الكوبرى ، كذلك أقيم الكوبرى فوق القناه تتدفق المدرعات المصرية فوقه علاوة على الأسلحة المعاونة من الصواريخ والمدفعية وامدادات الوقود والذخيرة فى نجاح غير مسبوق للعمليات العسكرية عبرالموانع المائية ، محققين أرقاما قياسية فى عبور القوات وتجهيزات المواقع . الرائع فى الأمر أن أرقام الخسائر المتوقعة لم يتحقق منها فى اليوم الأول للقتال سوى إثنان بالمائه فقط.

انسحب الآن . علاء الدين أصدر الأمر إلى رجاله لينطلقوا إلى نقطة المقابلة الخلفية على مسافة كيلو متر ونصف إلى الجنوب من الكثيب ، وظل مكانه يتابع رجاله حتى تأكد من خروجهم جميعا فانطلق فى اتجاههم . بعدما تأكد من خلو الموقع من الرجال والسلاح.
رجال الكمين افتقدوا قائدهم ، فعادت الدورية تنادى فقد توهموا أنه أصيب ، فتقابلوا وعادوا إلى نقطة المقابلة يكادون يحتضنوه . عندما كانوا منتصف المسافة فوجئوا بصوت دبابة قادمة على الطريق تطلق دانات شديدة الانفجار على المنطقة شمال الكثيب فى الاتجاه المعاكس لهم تماما ، فابتسموا فرحين أنهم خرجوا من المنطقة سالمين بينما العدو يبحث عنهم بالنيران فى مكان آخر.
طريق العودة يحتاج خمسة ساعات كاملة للدخول إلى رأس الكوبرى . بزغت الشمس وأصبحت الصحراء مكشوفة تماما وعناصر العدو تجوب منطقة الكمين تلقى بالقنابل اليدوية ، وطلقات الرشاشات تفتش عن عناصرالكمين ، وارتفعت طائرات هليوكبتر تقوم بنفس الواجب دون جدوى.

رجال علاء الدين احتلوا قمة تبة فى طريق العودة . وبسرعة حفروا واختفوا وموهوا مواقعهم ، والعدو يبحث فى الأخوار والوديان وحول الطريق حتى مل ذلك وانصرفت القوات قرب الظهيرة.
كانت المعركة على أشدها أمام رأس الكوبرى . الجنود المصريون يطهرون المواقع من الجنود الإسرائيليين أو يأسرونهم ويفجرون حقول الالغام أو يحددوها فى الوقت الذى دفع فيه قائد الفرقة العميد فؤاد عزيز كل احتياطياتها المضادة للدبابات فى الاتجاه المتوقع للواء المدرع ، بل ودفع تدعيما اضافيا وصل من قيادة الجيش وجعله حائطا منيعا.القائد الاسرائيلى واصل التقدم فاتحا التشكيل فى مواجهة القوات ، يطلق النيران بمختلف الأعيرة حتى ظن أنه أسكت كل المواقع المصرية فى مواجهته بل وزاد من سرعه تقدم وحداته. حبست القوات المصرية نيرانها تماما حتى دخل اللواء الاسرائيلى فى مدى النيران المؤثرة ،

واقترب كثيرا حتى فتحت عليه ستارة نيران مضادة للدبابات محكمة التصويب تماما ، فدمرت ثلاثين دبابة منه فى لحظات . وكان قرار قائد اللواء الاسرائيلى بعد أن فقد ثلث قوته تقريبا أن يتراجع شرقا للخروج من المدى المؤثر للمصيدة التى وقع فيها لينجو بباقى وحداته ولم يعاود التقدم أبدا.وعندما حل الظلام كانت عناصر كمين علاء الدين تسيرغربا إلى قاعدتها وإشارات علاء الدين مع على هيكل يتبادلونها ، ثم يطلقون طلقات الاشارة لتدخل قوة الكمين كاملة يحملون معهم نصرا كبيرا.

* * *


داوريـــــــة طوســــــون

" الراجل ده لازم يموت " قالها القائد الإسرائيلى مشيرا إلى حفرة فى مواجهته على التبة التى لا تبعد عنه كثيرا . كانت الحفرة البسيطة خندقا صغيرا يضم رجلا يقود كتيبة من قوات الصاعقة المصرية بمنطقة طوسون جنوب مدينة الإسماعيلة ، يرسل أوامره بجهاز لاسلكى خفيف وبجانبه رئيس العمليات . يصدر القائد علاء الدين تعليماته بسرعة وتلقائية مدروسة ، فهو يعرف جيدا إمكانيات رجاله.

كان من السهل على القائد الإسرائيلى التعرف على مركز قيادة عدوه بعد أن أحس أن المعركة تكاد تفلــت منه بسبب نيران مجموعة كمائن علاء الدين التى تــنهمر فوقــه ، والتى أدت إلى تصاعد خسائره فى الدبابات والضباط والأفراد بسرعة مخيفة ، وشعور غامض يتملكه أن المصريين فى مواجهته قد تفوقوا بالفعل .

دانات مدافع فصيلة دبابات ، علاوة على نيران مجموعة رشاشات متوسطة ، كلها صوبت ضربها فى إتجاه مركز قيادة علاء الدين ، الذى احتمى بأرض مصر وانزلق داخل حفرته يتفادى النيران ، بينما ترتفع خسائر الخصم فى مواجهته .

الانسحاب من الموقف نصف الشجاعة . تراجعت قوات العدو قليلا لتخرج من مدى النيران متخلصة ، تلتقط الأنفاس من كمائن علاء الدين ، ولتعيد تنظيم الصفوف وتستدعى دعم المدفعية والطيران .

لا يمكن أبدا أن نترك دباباتهم تنسحب من أمامنا ببساطة . قال رجال الكمائن سنتحرك خلفهم بوثبات واعية ، كل مجموعة تستر الأخرى تطلق أسلحتها وتشاغل قوات العدو حتى تقترب عناصر النيران . علاء الدين كان لابد له من الحصول على موافقة قائده لمطاردة العدو المنسحب ، فإن ذلك يتطلب الحماية النيرانية ، وربما دعما جويا ، وبسرعة صدق قائد المجموعة على قرار علاء الدين .

انطلق الرجال بقلوبهم الفولاذية يطاردون فلول الدبابات والعربات المجنزرة يصطادون منهم من كان فى المدى ، وتتلاحق الضربات موجعة .
كان لابد من المناورة ، نحن والعدو ، علاء الدين وعناصره تنفذ المهمة وقوات العدو تتراجع تكتيكيا ، ليدخل علاء الدين بكمائنه المطاردة إلى كمين أكبر ، فأحاطت به وحدات المشاة المدعمة من جانبيه ، فدخل بين فكى الكماشة غير مدرك للخطر الذى يحيق .
المنطقة مليئة بالنباتات والأشجار ، واختفت عناصر العدو المقاتلة داخل كثافتها ، تنتظر لحظة يتمكنون فيها من حصار قوات الصاعقة تماما ، ثم تدمرها فى مكانها وسطهم .

نيران الصاعقة حصدت ستة قطع مدرعة للعدو ، علاوة على أطقمها من الأفراد سقطوا قتلى . يحاول العدو سحب قتلاه المنتشرين حول العربات المدرعة والدبابات يتصاعد دخان احتراقها .استمرت محاولات العدو ساعات تحت ستر قصف مدفعيته بلا جدوى ، فقد كانت نيران الصاعقة تحبط المحاولات ، ففقد العدو الأمل فى تحقيق هذه المهمة أيضا.

فجأة شدد العدو قصفه على مركز قيادة كتيبة الصاعقة ، إلا أنه فشل فى تدميرها . فقط جرح أربعة أبطال ، وزملاؤهم يربطون على جراحهم فى إسعافات أولية ميدانية لإيقاف النزيف.
كان موقف العدو محيرا بالفعل ، وعلاء الدين غير قادر على إنتاج نيران تدمر كل هذه الدبابات والعربات المدرعة حوله . إنها كنز ولكن ذخيرته تناقصت بشكل ملحوظ ، وتكفى فقط لأن يدافع عن نفسه فى الورطة التى وقع فيها . عزاؤه كان موقف العدو الذى كان لابد أن يفكر فى التخلص من الموقف بأسرع ما يمكن ، بعد كمية خسائره التى فاقت كل التصور ، واضعا فى اعتباره أنه لا يمكن التكهن بتحركات الإسرائيليين فى هذه اللحظة بعد أن فقدوا صوابهم بسبب الخسائر المتصاعدة فى الأفراد والمعدات .

ـــ مش معقول يا علاء .. خطر جدا عليكم .
ـــ أنا مقدر موقفى ومحدد مكانى كويس ، كل الأفراد تحتمى بالسواتر والحفر .
ـــ قائد الجيش لن يصدق على هذه القصفة .
ـــ أكرر طلبى ، أنا فى المربع تفاح أربعة ، تحيط بنا كتيبة مدرعة مدعمة بالمشاة الميكانيكية وفصيلة صواريخ مضادة للدبابات ، وكلها فوق سطح الأرض . مطلوب تدميرها .

ــ انتظـــــر . .

هذا يوم آخر عصيب .العدو دعم قواته بفصيلتين من الدبابات . نيران المدفعية المعادية تركزت على موقع كتيبة علاء الدين . يقوم العدو بتحسين مواقعه لإنتاج النيران . بدأت طائرات العدو فى القصف حول المنطقة .
لا تتحركوا .. تمسكوا بالمواقع . كان ذلك أمر علاء الدين لعناصره التى قامت طول الليل بتحسين حفرها وخنادقها ، وكان ذلك يسيرا عليهم فقد كانت المنطقة مجهزة من قبل بالخنادق الدفاعية قبل الهجوم الشامل شرقا .

يحبس الرجال نيرانهم وأنفاسهم صابرين . تحين لحظة حاسمة يطلق فيها أحدهم صاروخ ساجر ليطير لحظات ، ليلتحم مع دبابة أو مدرعة ، وكلما ظهر واحد منهم أطاح به قناص . اتسعت الدائرة قليلا حولهم . استطاعوا المناورة ، فأصبحت مواقعهم أكثر ثباتا وأمانا .

الجحيم مرَة أخرى ينطلق فوق المربع تفاح أربعة . تمسحه غلالات نيران المدفعية المصرية وتحصد قوة العدو البشرية فوق الأرض يدير اتجاهاتها ومسافاتها رئيس العمليات من مركز ملاحظته إلى جوار خندق علاء الدين ، بينما طائرات هيلوكوبتر تطلق صواريخها على الدبابات فتشل العدو الإسرائيلى وأيضا كل قوات علاء الدين تحت الأرض ، والكل ينتظر نهاية القصف .
جن جنون العدو ليدفع بفصيلة دبابات جديدة لم يكن حظها بأفضل ممن كانوا يحاصرون علاء الدين فدمرتها صواريخ الطائرات أيضا .
ــ موقعى لن يقتحم أبدا . نحن نتحكم فى المنطقة رغم قسوة المعركة .
ــ تخلص من الموقف فورا تحت ستر المدفعية . القصفة تبدأ بعد سبع دقائق .
ــ سأنفذ الأمر ولكن ...!
ــ ليس هناك مجال . نحن نعرف الموقف . القائد اتخذ القرار بستر انسحابك وتدمير وحدات العدو فى المنطقة عقب خروجك منها .

الجحيم مرة تالية . محسوب بدقة . كل الاتجاهات مضروبة عدا الجنوب يتسرب منه رجال علاء الدين ، ومعهم كل معداتهم والجرحى . وضعوا خلفهم علامات فوق الأرض حتى إذا ما عادوا يسهل عليهم معرفة مراقد الشهداء . تاركين الموقع لهم يجمعون أشلاء

قتلاهم ، ويلملمون ما بقى من معداتهم بعد أن توقفت نيران المدفعية بضع دقائق ، وما أن اطمأنوا إلا وفتحت عليهم غلالاتها لتنسف البقية من آمالهم فى بعض الهدوء.

تجمع رجال علاء الدين بعيدا عن مرمى نيران القوات الإسرائيلية يحثون السير فى إتجاه القيادة ، واستقبلهم قائد المجموعة ليقدم إليهم أمرا جديدا لمهمة ليست مستحيلة .

* * *

السمـــــــر البواســـــــل

تندفع مجموعة علاء الدين إلى منطقة الاختراق شمال الدفرسوار . المعلومات متوفرة عن العدو . يدققها الفلاحون أبناء القرية عندما رأوا الصاعقة المصرية . يشيرون ويدلون القادة والجنود عن أماكن عناصر العدو .

جبر وفايز بعيونهم السمر القوية وكل منهم يقود جماعة كاملة يندفعون إلى حديقة البرتقال قبل الفجر ، عندما كانت شبورة فجر يوم من أكتوبر تغطى الأرض والشجر والدبابات . أربع دبابات انفجرت وقتل كل أطقمها ستة عشر فردا . هربت مجنزرة إلى الشمال تبلغ عن اقتحام المصريين .المقاتل فتحى كان بالمرصاد ، أشعلها بدانة واحدة من قاذفه وقتل أربعة أفراد من حمولتها ، وفر الأربعة الباقون. دبابات إسرائيلية تندفع إلى حديقة البرتقال ، ربما سرية كاملة. نيرانها حارقة تلقى بالنابالم على الشجر والأرض . الدعرونى مقاتل لا يستسلم، صوب قاذفه وقال بسم الله فانفجرت قاذفة اللهب .فايز ونبيل يطيرون برجالهم ، يبدلون مواقعهم ، ينتقلون إلى محطة الكهرباء ثم إلى محطة السكة الحديد فى إتجاه أبو سلطان يسترون جانب قوات علاء الدين . يقصف العدو المنطقة بالمدفعية . تشكيل آخر من الدبابات يقترب . مجموعات الصاعقة المدربة تحتل مواقعها تحت الأرض كلها مغطاة بالشجيرات الخضراء . قطعوها لتخفيهم . المسافة ثلاثون مترا فقط . حبسوا الأنفاس. ملامح جنود العدو واضحة تماما .

القلوب جامدة قوية . دبابتين ومجنزرة أعلنتا خروجهما من المعركة على الفور عندما انفجرت فيهم قذائف الأر.بى.جى . قفز الأفراد مشتعلين على الأرض لتصطادهم طلقات البنادق . ينسحبون . سرية كاملة من الدبابات تندفع فى إتجاه قوة الصاعقة تفتح عليها من الحركة نيرانها الكثيفة. رجال الصاعقة فى صلابة الفولاذ يتمون مهمتهم مدمرين قوة الهجوم المضاد بأسلحتهم البسيطة عمادها المفاجأة والمبادأة والإيمان . صوبوا قواذفهم وأحكموا ، ثم انطلقت القذائف فى الضرب مجموعة نارا محكمة تحيط بباقى قوة العدو ، بينما تفر الدبابتان اللتان كان حظهما النجاة هذه المرَة متجهتين شرقا ، فتخرجان من المواجهة لتسجل هزيمة جديدة ، ونصرا رائعا للسمر البواسل

* * *

الرقص على الألغـــــام

إشارة من فرع عمليات الصاعقة إلى قائد الكتيبة ثلاثة وسبعين صاعقة. رصدت مجموعة دبابات إسرائيلية عبرت إلى غرب الدفرسوار. يتم التحرك فورا إلى مدخل سرابيوم الجنوبى لاستلام المهمة من رئيس الأركان.

يتلقى الملازم أول سامى كمال هذه الإشارة المفتوحة عن طريق اللاسلكى ويبلغها فورا إلى القائد علاء الدين الذى لم يكد يستكمل الذخيرة التى استهلكها فى داورية طوسون وبعدها شرق البلاح. إلا أن ذلك لم يمنعه من إصدار أوامر الاستكمال ، ويهرع إلى جهاز الإتصال يؤكد المهمة ، فى الوقت الذى كانت فيه باقى عناصر الكتيبة تؤدى تمامات الاستعداد متتالية.

دقائق محسوبة ثم كانت الكتيبة كلها تتقدمه إلى سرابيوم. تم استلام المهمة هناك وتندفع سرية منها إلى إتجاه الترعة الحلوة المتجهة جنوبا إلى السويس، وباقى القوة تستمر على طريق سرابيوم.

كان الرئيس المصرى قد أعلن فى بيانه أن الإسرائيليين استطاعوا دفع قوة تقدر بسبعة دبابات إلى غرب الدفرسوار، واحتلت سبعة كيلومترات مربعة فقط، وجارى تصفية هذا الجيب المفاجئ. مساء اليوم السادس عشر من أكتوبر كانت قوة العدو تزداد وتتسع المساحة التى تسيطر عليها بالفعل غرب القناة، ثم تنضم القوات الإسرائيلية معا بحلول المساء مكونة بؤرا دفاعية توفر لنفسها الإنذار والحماية والأمن ليلا. لا يتركون الدبابات والوحدات أو الجنود فرادى خوفا من هجمات المصريين المفاجئة ليلا، ثم فى الصباح ينتشرون.

علاء الدين ومعه سريتين كاملتين من الصاعقة بكل أسلحتها الخفيفة، استطاعت أن تحدد أنها فى الجوار تماما لدبابات العدو كقوة رئيسية. أما السرية الثالثة تمكنت من إحتلال مكانها كمجموعة قطع على وحدات العدو التى تفكر فى المناورة لتطويق موقع الكتيبة أو تحاول الاختراق شمالا فى إتجاه مدينة الإسماعيلية.

مع أول ضوء قبيل الفجر عندما صعد قائد دبابة إلى سطحها يفتح البرج عاجله الجندى محمد الغريب بطلقة واحدة فى دماغه سقط بعدها على الفور فوق الصلب البارد. أما الملازم أول رشاد شرف رأى

أن الوقت مناسب تماما للطلقة الأولى للقاذف آر.ب.جى واستطاع بسهولة تدمير ناقلة مدرعة كانت تحوى أحد عشر جنديا إسرائيليا راحوا فى ثانية واحدة إلى أشلاء.

علاء الدين كان قد أصدر أوامره قبل الفجر أن يتم التعامل التلقائى مع أفراد ودبابات العدو فور التمكن من ذلك، خاصة وأن المسافة القريبة للغاية سمحت بمفاجأة من نوع خاص أحدثت هلعا فى صفوفهم بتوالى تدمير قطعهم المدرعة والدبابات.

النقيب احمد الدعرونى اشتبك مع دبابتين وحده عندما حاولتا إدارة أبراجها إلى موقع الصاعقة، فأصاب واحدة صارت نارا فور الانفجار والأخرى تناثرت شظايا مع محتوياتها من الذخيرة والوقود المشتعل وتمزق أفرادها الثمانية ولم ينج منهم أحد على الإطلاق.

رشاش متوسط كان يحتل مكانه فوق عربة صهريج المياه الواقفة على خط السكة الحديد استطاع أن يدخل دفعة من طلقاته إلى قلب الدعرونى فراح شهيدا.
كانت مجموعة الدعرونى تمثل مجموعة القطع، التى تمنع وحدات العدو من التدخل فى تنفيذ مهمة الكتيبة، ولما استشهد قائد المجموعة تولى القيادة الشهيد صلاح عبد الهادى الذى صمم قبل أن يسقط أن ينتقم للدعرونى فكان نصيبه تدمير أربع دبابات متقدمة لنجدة القوات التى تهاجمها الكتيبة، تطلق نيرانها حولها فى أقواس تمسح الأرض على مختلف المسافات ربما اصطادت جنديا مصريا يختفى خلف كودى الأعشاب، أو وراء ثنية أرضية، إلا أنهم تورطوا كثيرا ودخلوا ضمن المدى القريب للقاذفات فتحولت الدبابات إلى مصهور الحديد والشظايا التى راحت تتناثر حولها فأصابت واحدة منها الشهيد صلاح.

مجموعة الدعرونى أتمت مهمتها لقطع الطريق على نجدة قوات العدو. دمرت كل ما أمامها، فأصبحت الحصيلة ثمان دبابات وأربع ناقلات. معظم من كان فيها صاروا خارج الخدمة، إما قتيلا أو جريحا أو فارا إلى خارج دائرة الرعب التى خلقتها كتيبة الصاعقة غرب الدفرسوار. كان الثمن أربعة شهداء لاجتذاب نيران قوات العدو بعيدا عن القوة الرئيسية للكتيبة.

رفيق عبد المجيد قناص من بور سعيد دائما يطلق طلقة واحدة فقط . كانت هذه المرة من نصيب رامى الرشاش القابع فوق فنطاس المياه والذى أصاب بعض الزملاء فرأى ألا يدعه يستمر. يراه

من خلال عدسة التليسكوب فيضع السهم بين عينيه ويضغط الزناد فتسكن كل المنطقة بعدما يتوقف صوت الرشاش المزعج وتأثيره لما مات الرامى ، وتبزغ شمس اليوم السابع عشر من أكتوبر. يرصد مركز إدارة نيران مدفعية العدو الموقف حوله وراحت الإحداثيات باللاسلكى إلى قيادتهم التى تمطر المكان بنيرانها الكثيفة.

المنطقة غرب الدفرسوار من ست سنوات جهزت فيها قوات المشاة خنادقها الدفاعية العميقة المغطاة، وأقامت دشمها المصنوعة من الأسمنت المسلح مموهة لا تبين من بعيد، وطرق اقتراب مدروسة بعناية، وملاجئ للوقاية من ضربات الطيران وأسلحة الحرب الكيماوية خلال حرب الاستنزاف ثم استخدمتها كمواقع ابتدائية للهجوم.
وحدات كتيبة علاء الدين تحركت خلال تلك المواقع الرائعة مستغلة متانتها وجودة التمويه، تناور ببساطة وأمان كما لو كانت مدفعية العدو تطلق عليهم قنابل صوتية.

تندفع إلى المنطقة عناصر من قوات المظلات الإسرائيلية الراكبة لناقلات الجنود المدرعة، تلتف حول الحد الخارجى لمواقع الصاعقة تطوقهم. ثم تقدمت بعض عناصرها لإنقاذ جرحاهم ونقل القتلى.
علاء الدين يمسك تماما نيران كتيبته حتى تكون الدبابات مرة أخرى فى المدى ويطلق عليهم الضرب مجموعة على هذه الأهداف السهلة فتتزايد خسائرهم ، ولكنه يفقد بعض الرجال فاستشهد حامد جلفون ونبيل الجيار وأحمد نصر وفايز خاطر.
لم يكن استشهادهم بلا مقابل، فإن العدو دمر له فى هذه المحاولة ثلاثة وثلاثين دبابة وناقلة جنود ومعظم أطقمها راحوا مجانا إلى الآخرة، والباقون كانوا ينزفون على أرض مصرية.

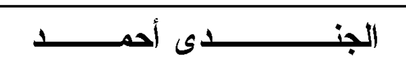
يدفع العدو مجموعة جديدة من احتياطاته خلال عنق الزجاجة عند الدفرسوار وتتجه مباشرة إلى موقع كتيبة الصاعقة تثير خلفها عاصفة من الأتربة وعادم المحركات ، وكلها تصميم على إبادة الموقع المصرى العنيد.
علاء الدين يرسل إشاراته عبر اللاسلكى متتالية عن حجم قوة العدو وإحداثياتها فوق الخريطة مع طلب واضح بضرب تجمعات لنيران المدفعية فوقها.
العميد على هيكل قائد مجموعة الصاعقة يوافق ويرسل على الفور نيران مجموعة ست كتائب مدفعية تنقل تجمعاتها وغلالاتها على

الأهداف فوق سطح الأرض لتشتعل أو تنسحب أو تلقى بنفسها فى مدى نيران قواذف الرجال.

توالت الخسائر الإسرائيلية، وذخيرة الصاعقة تتناقص حتى تصل إلى قرب الصفر خاصة ذخيرة القواذف المضادة للدبابات، والإسرائيليون مصممون هذه المرة.
اضرب ... ارجوك ... نفس الموقع ... نفس الإحداثيات. كانت هذه إشارات علاء الدين، والعميد هيكل يعرف أنه ينتحر بالفعل بطلبه هذا، فسوف يدمر تماما مع قوات العدو ، وليس هناك سبيل لإيقاف التقدم سوى قصفه بالمدفعية. قال العليمى الديب رئيس أركان المجموعة لقد كان هيكل يبكى عندما أصدر أمر الضرب فوق موقع الكتيبة.

تنهمر دانات المدفعية بكثافة مرعبة فوق الموقع. يحتمى رجال الصاعقة مع قائدهم بالخنادق العميقة والملاجئ والدشم المسلحة. يرفعون أبصارهم إلى فوق يطلبون من الله السلامة فى هذا الموقف الصعب.
لم يصدق الرجال أنفسهم عندما توقف الضرب وارتفعت هاماتهم لتجد قوات العدو قد فرت إلى الغرب والجنوب تاركة المجال كله بعدما أخفقت فى مهمتها للاختراق شمالا وقد ترك أشلاء القتلى وهياكل الدبابات شاهدة على نصر تحقق على أرض الدفرسوار.

* * *


الجنـــــــدى أحمـــــد

حدثت هذه الواقعة بعد نجاح القوات الإسرائيلية فى عملية الثغرة أثناء حرب أكتــوبر ١٩٧٣ وبعد أن وصلت قوات المراقبيــن الدولييــن للبدء فى فصل القوات.

* * *

كان موقع الجندى أحمد ممتازا اختاره بعناية غرب مدينة السويس ضمن فصيلته ، وكان مكلفا بمنع الدبابات المعادية من التقدم نحو المدينة بواسطة القاذف الصغير المضاد للدبابات ، ولما انتهى من تجهيز وحفر موقعه كان التعب قد أنــهكه، عندما لمح أربعة جنود إسرائيليين فى مواجهته يشيرون هنا وهناك ، واستطاع أن يــميزهم جيدا فلم تزد المسافة عن خمسين مترا ينتصفها المراقبون الدوليون .

انفصل عن الإسرائيليين أحدهم واختفى خلف التبة القريبة وعاد يقود دبابتــه ليحتــل بــها مكانــها الجديد فى مواجهته . عندما حضر قائد موقع الجندى أحمد تقــدم إليــه ضــابط المراقبة الدولى يطلب منه رفع الموقع المضاد للدبابات إلى مكان آخر وكان ذلك بناء على طلب الضابط الإسرائيلي فهم الجندى أحمد أن قائد سريته يجب أن يستأذن قائد الكتيبة هو الآخــر .. كرر الاسرائيليون طلبهم وأعطوهم مهلة ربع الساعة وإلا سوف يزال الموقع بالقوة .. ســوف تنسه الدبابة ورأى مدفعها مصوبا إليه تماما .. كانت أفكار الجندى أحمد تتسابق مــع عقــرب الثوانى عندما تناهى إلى سمعه أن قائد الكتيبة يجب أن يحصل على موافقة قائد اللواء أيضا .

كرر الإسرائيليون الطلب لرفع الموقع وهددوا هذه المرة بقصف السويس بالمدفعيــة من الشرق والغرب ومهلة الربع الساعة ثانيــا . يجرى عقــرب الثوانــى وتدور أفكار الجندى .. المدينة مقابل حفرة القاذف الصغير ، وجرى بيده فى حنان يمسح الأتربة التى علقت بسلاحه . رأى أحمد الضابط الاسرائيلى يتحدث مع ضابط المراقبة الدولى الذى تحرك بدوره الى الملازم قائد الموقع ليسمع هذه المرة أن الطيران هو الذى سيدك المدينة كلها خلال ربع ساعة ثالثــــة .. وجرى الملازم قائد الموقع يتعجل التصديق على رفع القاذف إلى موقع جديد . والجندى أحمد من صعيد مصر .. الثأر والكرامة فى دمه تجرى فى العروق . ماذا يفيد العناد . إن الطــائرات سوف تدك المدينة كلها سواء نقل موقعه أو لم يفعل وربما مات هو أيضا .. يجــب أن يفهــم القائد الأكبر أنــهم لا يطلبون الإذن للبدء .. وأيضا لا يبحثون عن حجة لبدء الضرب بالمدفعية . إن موقعه البسيط عبر خمسون مترا يثيــر ذعرهم ولا بد أن يكون هناك رد حاسم من القائد برفض طلبهم وفى هذه الحالة أيضا سيضربون . نظر الجندى أحمد إلى الدبابة ورأى مــدفعها مازال مصوبا إليه .. دقق النظر واستطاع أن يرى الدوائر فى فوهة مدفعها ويكاد يتخيل الطرف المدبب للمقذوف داخل الماسورة يحمل إليه الموت والعار ، وهؤلاء الاسرائيليون يقفــون فــى مرح أمام دبابتهم الجديدة وقد ينظرون فى ساعاتــهم ويرمقونه من بعيد أحيانا .

ثنى أحمد ساقيه ليغوص فى عمق حفرته .. تناول طلقة ووضعها فى ماسورة قاذفــه الصغير وضغط عليه وسمع تكة خفيفة ثم رفع الناشنكاه وضبطه على مسافة خمسين متــرا .. فى هدوء فرد ساقيه ووقف ووضع سلاحه على الساتر الترابى أمامه .. نظر حولــه .. ســمع صوت السكون .. مازال الإسرائيليون يتحدثون وضابط المراقبة الدولى ينظر إلى الأفق .. وقائد فصيلته يدير ملف التليفون .

نظر أحمد للسماء مستعينا ورفع القاذف إلى كتفه وأحكم التصويب .. ثم كان الــدوى الكبير فى أذنيه .. صوت خروج المقذوف إلى الدبابة الاسرائيلية ثم كان الدوى الأكبر .. انفجار الدبابة الذى أطاح ببــرجها وألقاه أرضا وثــمة غبار كثير .

انتظر الجندى أحمد أن تقصف المدينة بالمدفعية أو أن يــأتى الطيــران الإســرائيلي ليهدمها حتى حل ظلام الليل .. وجلس أحمد مع زملائه يتندرون وبعدها لم يقرب الاسرائيليون موقعه أبدا .

مـــــن أوراق محـــــــــارب

<u>الرسالة الأولي</u>

زوجتي الحبيبة.....

.... "علي فكرة الواحد فينا اكتشف أنه ربما يحب زملاءه وجنوده أكثر من زوجته وأولاده، ده شعورنا كلنا، ويا حبيبتي يامصر مش غنوة، ده احساس نمارسه كل دقيقة فعلا، وعندما نري العدو ينهزم ننادي الله أكبر وننسي أننا آدميون، نظن أكثر، ملائكة مثلا"

أنا مطمئن عليك، أما أمي فقد تعودت علي ذلك، فنحن هكذا دائما، مسافرون، محاربون، راجعون. وتدرك أن أولادها الثلاثة عفاريت يعرفون كيف يتصرفون.

أنا مع زملائي وجنودي نفرح ونحلم، وننتصر ونخاف معا. فكل إنسان يخاف ولو للحظة أن يموت أو يجرح.

طائرة انقضت لتخطف الأرواح، وفي لحظة خوفي الأخيرة فجأة انطلق صاروخ، أطلقه جندي مجهول من موقع قريب. الصاروخ لاحق الطائرة مشتاقا، دار ولف خلفها يناورها حتى التصق بها، احتضنها من الخلف، كل ذلك في لحظة واحدة، ومن شدة حب الصاروخ للطائرة انفجرا معا إلي الأبد. واختفي الخوف. وشملتنا الثقة، فقد كنا جميعا ننتظر توفيق الله لنري النهاية.

كلنا مشغولون، منا من يراقب من بعيد أو يصوب المدفع أو يوجه طائرة، ندافع عن بعضنا، لندافع جميعا عن مكاسبنا، لا نود أن ينقص منها أو تضيع بل نحاول زيادتها، حتى ترقص القاهرة ومعها مصر كلها للبيان القادم أيا كان رقمه، فإننا نعرف أنكم ألصقتم أجهزة الراديو فوق آذانكم، وأصابعكم تجري متلهفة علي مؤشرات الأجهزة لتسمعوا خبرا عن جبهة القتال، أنا لست بطلا، كلهم أكثر مني بطولة، وكلنا نشترك فيها، ويوما سوف أحكي ماذا كان من أمري، فلست سوي ترس صغير في ماكينة كبيرة، أعمل لتعمل، وأنا مهم وغيري أيضا.

كسروا فرحتي

لقد أحاطوا بنا وكسرت فرحة الانتصار، فطوقناهم من بعيد، سجين وسجان ثم سجنهم ثالث. هكذا نحن الآن داخل الحصار. نقص الماء والطعام والوقود. إذا نحن وهم محاصرون. بعضهم تبادل مع اليهود الوقود بالماء والطعام بالسجائر في المواقع القريبة. أصبحوا جميعا في محنة واحدة قربتهم، ولكن الكل يده فوق الزناد. أعجوبة لم أكن أصدق أن أعيشها.
أعيش أوقاتا طويلة شفتاي مغلقتان، وشعور دائم بالضياع لأن كل شيء قد توقف، بعضهم عاد إلى القاهرة في أتوبيسات خاصة يحمل كل منها عشرة جرحي، فقد كل منهم جزءًا وأصبح لا يصلح للقتال والآخرون سيبقون هنا إلى الأبد تحت الرمال، ونحن هنا فوقها ننتظر أن نسافر في الأتوبيس الكبير، أو ننزل إلى أسفل مع أبطال سبقونا. فقط ننتظر، ولو حتى طلقة قريبة تريحنا من الانتظار، ولكن يبدو أنه لابد من ذلك.

أنتِ جربتِ الانتظار في موعد أو على محطة الأتوبيس أو عيد ميلاد أو.. أو.. ولكن أن تنتظري الحياة فإن ذلك شيء آخر تماما، شيء رهيب مخيف ساعتها يتولد الأمل وأيضا الملل والألم، وكلها فيها حرف الميم، إذن هناك مشكلة أو مصيبة أو موت أيضا، وأتعجب وأنام لأصحو في يوم جديد.

الحنين

والحب شيء صعب متعب يهد الأعصاب والقلوب، وكل منا يطوى، وأنا أحدهم، ويزيد الشوق كلما مر يوم، شوقي إليك وإلى لمسة يدك وعطر شعرك ونظرة عينيك، وشوق إلى الأولاد أن أحضنكم جميعا في فكري بيدين خاويتين. أتمثلكم أمامي، لتنطلق زفرة ألم حارة لأفيق من وهم لا أدري متي أحققه، ويغيظنى أن لي كل شيء، البيت والأسرة والأولاد. كيف أصبح شكلهم، وماذا تقولين لهم، وكيف تنتظرون. وحشتينى جدا.

أخبار الحرب تأخذني لأنها حولي باستمرار، مسئول عن الجنود والضباط أوفر لهم بعض الأمان والاحتياجات والمعلومات، ولا يمنعني هذا أن أفكر فيك والأولاد وبيتنا في لحظات أكون فيها وحدي، وأحن لابتسامتك وتقطيبة وجهك، أفكر متي سأعود، وتمر لحظات حتى

تمر فوقنا طائرة العدو، أو تنفجر قذيفة مدفع، فنعود لأعمالنا بعيدا عن أفكارنا، لنقاتل ونحارب ونحصل علي تذكار من العدو، قطعة سلاح أو ملابس أو سجائر أو علبة عصير، وأفكر أن أحصل علي أذن جندي يهودي، أقطعها وأهديها لك في علبة من القطيفة الحمراء، ولكن أظن أنها سوف تكون بشعة.. آه.. علي فكرة الغد عيد ميلادي وكل سنة وأنا طيب وأحسن أني سأكون بعيدا وأوفر عليكم الهدايا، اطمئنوا احتفظوا بها حتي أعود.

خدعت الزمن والمـــــلل

شهور مرت وجهزنا كل شيء لأى احتمال، وكسونا الخنادق ونظفنا الأسلحة، وشوّنا الذخيرة وأخفينا المواقع، وبنينا الأفران نخبز فيها العجين خبزا، فقد استطاعوا في المباحثات أن يمدونا بالدقيق والماء واستطعنا صيد بعض السمك، ونتحايل علي الحياة والوقت والأمل ألا نيأس.

نطيل أفراحنا وابتساماتنا، ونبتر خوفا لا يدوم إلا لحظة، لا أدعها تتملكنى، فإنه لو حدث فلابد أن أجن أو أمرض أو أموت، أجابهها ألا تركبني، وأضع طاقتي في عينىَ أو أذنىَ أو لساني، أفعل ما يجب أن يكون، أتداخل فيهم، في أرواحهم، نتماسك نتقوى، وهي لحظة، إن مرت حصلنا علي نصر، وإذا لم تمر فسوف نموت وهاأنا أكتب ومازلت حيا، لا خوف لا ألم، فقط الانتظار.

وحكايات قديمة عن حصار الفالوجا وأبطالها، ونحن سوف نصير مثلهم، ربما لو كانت هناك حياة. جنودي ملوا الحديث والعمل وأصبحوا مكتئبين، وأبحث في عقلي عما أشغلهم به، يكادون أن يصبحوا مرضي أو خيالات بعد قوة. أين هم من عبروا وهزوا العالم كله. أين الفرح، تضاءل واختفي، ونكاد نموت كل طلعة شمس. بدأ بعضهم يسرق الماء والطعام. الفراغ ... ، اذن لابد أن يمتليء.

قفزت الفكرة. الليل طويل ممل مخيف، والنهار صعب، والطيران فوق الرؤوس، اذا نقلب الصورة، لننام في النهار، والليل نفعل فيه ما نشاء، أخذت الرجال ولورى ورحلة قصيرة حتى نقطة العدو القوية علي شاطئ القناة، بقايا خط بارليف ووجدت كنزي هناك.

كان الكنز بقايا الموقع، الخشب والصاج والمواسير وأسلاك. لا أحتاج لأكثر من هذا. فرح جنودي بالكنز وعادوا بجزء منه، وقرروا

وحدهم أن يحفروا لى ملجأ تحت الأرض ويغطوه بما لدينا، وعملوا حفرة كبيرة جهزوها من الداخل بمصاطب وطاقات لوضع فانوس الإضاءة والأشياء وطاقات أخري للتهوية والنور، ودكوا أرضها بقوة، وصنعوا من شكاير الرمل سلما منحنيا وغطوا كل شيء بالرمال وموهوه حتى لا يرصده الطيران وأهدوا كل ذلك لي.

فرح الجنود بما أهدوه لي، فأهديته لهم ليسكنوا، فهم كثيرون وهذا الملجأ الجديد يتسع لهم، وقبلوا شرط أن يصنعوا آخر لى، وهكذا استمر العمل في ملجأ جديد، أهديته لضباطي فلم يكلوا، فقد وجدوا ضالتهم اشتغلوا في الحفر كل الليالي، وناموا كل الأيام، يقسمون واجباتهم في الحراسة نهارا وليلا وبذلوا كل طاقتهم. وجعلتهم يحسون أنها فكرتهم فحبذوها فقصرت عليهم الأيام.

<u>أنـــــــا وأنـــــــت</u>

سألني أحدهم عن حال الأولاد ثم استرسل في الكلام ومضى، وأحضرت ورقة وقلما. ووجدت أن ابنتي عمرها أربعة شهور وأربعة وعشرون يوما، وقد مضت علينا معا ألف وثمانية وخمسون يوما منذ الخطوبة حتى اليوم، آه.. كانت فترة الخطوبة ثمانين يوما فقط، ثم انتظرنا ثلاثمائة وخمسة أيام حتي تزوجنا.. و.. و.. عقبال ألف... مليون .. والعمر يطول وأسعدك أنت والأولاد.
هل تذكرين أول لمسة، هيه ..؟ أول قبلة..؟ أنا أذكر أول سهرة لنا وحدنا، وأول ليلة وأول صباح وآخر لحظة وعلامات أخرى في أيامي لا أستطيع نسيانها ولا أريد.

<u>صمود</u>

القمر الثالث ظهر ورأيته الليلة، مضي أكثر من شهرين، وهذا قمر الشهر الثالث يطل علينا يكاد يحصي الباقين وغيظهم وخيبة أملهم وساعاتهم التي لا تمر، ولا أدري كم قمرا سوف أعد، وعلي كل حال فلا يزال الطريق في أوله ولم نعد سوي ثلاثة. ويمضي العمر قمرا وراء الآخر، فيزيد عمرنا، ويزيد الحنين وتقل الفرصة، آه.. وتزيد اللوعة وهكذا، هل تحسبون عندكم الشهور بالأقمار؟

كل الآلام الآن لنا، لست وحدي ولكن الجميع، وتمضي الساعات والأيام ونتكلم كثيرا، وأصبحنا نحكي كل شيء، ومازالت هناك بقية لدي كل منا نقولها في الليالي القادمة، وصرنا لا يستحي أحد من

الآخر. فكل منا قد عرى أفكاره وعواطفه لزميله. لا، فقد توحدنا، صهرتنا التجربة الطويلة الصعبة، ومحاولات للضحك والابتسام، ثم أحلام للمستقبل والأيام القريبة، لنتشبث بأي أمل، ونصدق كل الكلمات ونتبادلها من فرط الفراغ والملل والأمل فقد فعلنا كل شيء، قاتلنا وانتصرنا، وتوقفنا وأعددنا مواقعنا، وحصنّاها ألا يخترقونا، وحافظنا علي كل ما عندنا، وأرواح جنودنا كانت أمانة صناها، وسلاحنا نعتني به، ونخلص لله والوطن والشعب ولأنفسنا، فعلنا كل شيء حتى لم يتبق ما نفعله. لقد بدأنا وأعدنا الاختراعات القديمة للإنسان الأول في عيشته، وأمسكنا السمك بأيدينا والطيور، وصنعنا الفخاخ والحراب وبنينا الأفران والجحور، وتمسكنا بكل ما لدينا من أمل وروح، ماذا تريدون أن نفعل أيضا؟

فجأة يحنون علينا ويهل اللوري، ويقذفون ما فيه إلينا »جراكن مياه حلوة من ماء النيل، وعلب بسكويت فرنسى، وسجائر يونانية، وجبن من هولاندا، وفواكه محفوظة. والصرخات تملأ جنبات الوادى فرحة برسالة حب، أنهم تذكرونا هنا أحياء علي الضفة الشرقية للقناة، وننتهي من حفلنا بعد أن نلعق علب العصير والمربي، ونقلب علب البسكويت لنجمع فتاتها الأخير حتى لا يأكله النمل ونظل جوعى، ونشد أنفاس السيجارة حتى يحترق ورق "الفلتر" نتقاسمها معا. ونعود لما كنا فيه، نلعب باختراعات الإنسان الأول لنمضي الوقت، وننحت في الصابون أشكال الشطرنج، ونرسم اللوحات لها، ونصنع من ورق علب السجائر أوراق اللعب أو نرسم السيجة علي الأرض، نعاون أنفسنا ألا نمل حتى لا نسأل عن اليوم ماذا يكون، وجعلنا لنا إماما يبصرنا بأمور ديننا ويفتينا في التيمم، ويعلمنا ويقرأ لنا سور القرآن، وليهدينا ويهون علينا من ديننا ما نحن فيه.

كل هذه الشهور تمر ولا أراك.. هذا كثير، وتحملته بالفعل. في حساب الزمن شهور لاشيء بالقطع، وعندما تكون النهاية معلومة، سوف أتحمل بآلام أقل. اذن عندما لا تكون هناك نهاية واضحة فالألم أكثر. هل تحسين الألم مثلي..إني أفكر وأستعيد الذكريات لكل حياتي. ثم أحلم، ثم أعود وأفكر، واختلف الأمر الآن، لاأعرف كيف أفكر وكيف أحلم، وما أنا فيه هل هو حلم أم أنا مستيقظ وأفكر. الهزيمة والهمة والفداء، والقوة والبأس والايمان، والدين والوازع والضمير، والصبر والاحتمال والجلد، والشدة وعزائم الأبطال، والرجال والترابط .. هل رأيت معاني وأحداثا مارسناها جميعا كلها، حتى أتينا عليها وعلى نهايتها.

رجال ومتماسكون وأقوياء، وحتى آخر رجل وآخر طلقة، وآخر نقطة دم، وآخر نبضة قلب، وآخر نفس يتردد في الصدور.. كلنا قلنا هكذا وانتهى الأمر، واتفقنا علي أنه ليس هناك الا هذا، ولن يدخل العدو هنا الا علي أجسادنا. ثم باقىالأيام نستعد وينتهي الاستعداد، ثم ماذا، مرة أخري ننتظر أملاً جديداً وندور. تحمل يارجل.. اصبر نقول لأنفسنا والآخرين.. أكاد أسمعها منى وأنا أكتب، أنت تقولينها الآن لى بصوتك أنت.

الرسالة العشرون.. الحلم

ومن كثرة الفكر أصبحت كالتليفزيون أغير قنوات فكرى، نائما ويقظان. أري الصورة التي أحب لمن أحب، ثم أعيد الصور مرات ومرات لأجلس أتكلم، أو أكتب أو أحكى وأعيش الحياة التي أحب أن تكون في بيتي. أتنقل بين الحجرات، وأفتح الأبواب والدواليب والأدراج والثلاجة والبلكونه وأغطى الأولاد وأغلق محبس الغاز والمياه والباب والنافذة قبل أن أنام، وأتشاجر لأن قميصاً ينقصه زر والآخر غير مكوى والبنت تصرخ لأن لعبتها وقعت علي الأرض.. أعيش كما أريد.

يعذبني الارتباط بكم، فذلك يضخم مأساتي عندي ويجعلني أحس الطعم المر في الحياة. بدونك بدونكم. وأحس الطعم اللذيذ في القرب ونشوة اللقاء والصدر الحنون، وأهلا صادرة من صدق قلبك وفرحة عينيك، وحضن أمى واخوتى ولمعة الدموع في العيون، أنتم تنتظرون أليس صحيحا، يا ساتر. ألا تستطيعون الانتظار أكثر؟ أنا قادم اليكم، أنا نفسي صابر حتى الآن، اتخذوني قدوة لكم، انتهت الصورة وغيرتها الى الواقع لأري الرمال والجنود والسلاح. صامدون صابرون عائدون نحن أصلب من الحديد والنار والريح وكل شىء.. هل تأكدتم من ذلك؟

الكيلو مائة وواحد.. ياساتر

تصورى.. الأيام مرت بسرعة رهيبة، كانت حلوة "زي السكر"جعلتني أنسى أشياء كثيرة. لكن هناك أشياء لا تنسى، أذكرها الآن واحدا بعد الآخر، والمستقبل أتمنى أن يكون أحلى وأجمل "خليكي معاي علشان لما أكتب لك أستريح" كأنى كلمتك رغم أنى أعرف أنه لن تصل كلمة واحدة إليك فليس هناك خطابات الآن. أكتبها ربما أرسلها عندما تحدث المعجزة. الشعور يتضخم داخلي أحس به يتورم أكاد أنفجر.. الغيظ.. الغضب.. البطء.. الملل.. الأيام لا تريد أن تمر، ولا

ساعة تنقل عقاربها.. لماذا مرت الأيام الأخري سريعة، أيها محسوبة علىَ، هل التي جرت وانتهت، أم التي لا تريد أن تمر، تتلكع أمام أعيننا جميعا، وحبالهم كلهم طويلة عند الكيلو مائة وواحد إياه الذي نسمع عنه عشرات المرات في اذاعات العالم، يا ساتر.!!

أهـــل الهـــوى

حبيبتي أحس انتظارك، وحاولي أن تشغلي الوقت بأي طريقة وذلك أيسر لك منى، والأمل سيأتى، واللقاء الجميل ينتظرنا علي شوق أكبر، وحب أكبر وقلوب ستخفق لتزيل آلام الأيام العصيبة، قضيتها وحدي علي الأرض وأخيرا علي سرير ضيق حصلت عليه من موقع للعدو، والبرد يلسع في الظلام ويلسعنى الملل في قلبى.. آه.. صحيح أهل الهوي مكتوب عليهم قلة الراحة وأيضا العزاب والذين لم يحبوا، والذين لا يحبون زوجاتهم.. كلهم عندهم الأمل أن يعودوا.. يتمتعوا بالمدينة وحياة الحرية، في أى مكان آخر تحت أى ظروف غير التي نعيشها، وكل له آماله وأحلامه، وأحلامي وآمالي أنا تدور حولك وأولادنا وبيتنا الصغير، وكلها جميلة ولذيذة حتي الخصام الذى قد أنويه معك، وأرسم أياما أكثر جمالا واشراقا ولو طال بي العمر والتقينا سوف ترينها أمامك وتعيشين فيها. أمنياتي كبيرة وكثيرة يظللها الحب والوفاء والتوفيق والتفاهم، وأيضا قلبى الذي لا ينساك لحظة. يعذبني الفراق ويسليني الأمل، لك قبلاتي التى لا تنتهي بكتابة السطور ودائما أحبك للأبد.

الرسالة أربع وثلاثون... المحنة

أيامنا تمر بطيئة لتزيد آلام الخلق حولى. أحس أنى كالمسافر الى أقصى الأرض، وستكون رحلة العودة بعيدة وطويلة جدا، لا نعلم كيف ستكون. تنتهى أفكارنا بضحكة متهكمة ساخرة مكتومة، تحمل معاني الأسى واللوعة والحرمان، أو هانت إن شاء الله، أو أخري فيها طعم الاندهاش للسؤال، وآخر ينظر الى ما لا نهاية وتعابير التجهم أو عدم الإحساس تبين بوضوح علي وجهه، وآخر يقودنا إلى التهريج والمرح المفتعل، أو إلى مناقشة سياسية أولها عام ثمانية وأربعين، وتنتهي بتصريحات المسئولين في الإذاعات. نجتهد في التحليل حتى نجهد ونلقي بأجسادنا نحاول النوم، وننثر كلمات الصبر التي نعرفها حولنا ومن كثرتها فقدت قيمتها وبقي الأيمان الفردى، حتى بات الجميع ساهمين صامتين وتمر ساعات لا نتبادل كلمة.

لأني أعرف أنك لن تقرئى كلماتى هذه في الوقت العصيب، فيحسن أن أقول أنى مرضت ونقص وزنى جدا، عشرين كيلو جراما، يعنى جلد على عظم. وهكذا سوف أبدو لكم كالشبح إن عدت ولا سبيل لزيادة الوزن فلا يوجد طعام، ولا توجد فيتامينات. ولأني أسمر فقد أصبحت أسود اللون وشعري طويلاً حتى غطى الأذنين، وشاربى غير منسق، وأحلق ذقني كلما كانت هناك أمواس، ولا يتوافر ذلك إلا نادرا.. ذلك شيء مؤلم تماما أليس كذلك.

قمرنا الرابع هل علينا.. والأمل موجود وإلا كنا انتحرنا جميعا معا، فقط يكون الألم عندما يختفي الأمل، يا سلام شاعر أنا الآن.. الألم والأمل كلمات متضادة متقاربة.. أليس في ذلك وحى والهام ياسلام والأمنيات والأحلام مجانية لمن يريد.. هل هناك من يطلب.. كثيرون؟

<u>رجل صعيدي العناد... له صبر الفلاح</u>

إن ما حدث لا يمكن حدوثه في العمر مرتين، وأستطيع أن أعد بألا أتورط في أى حرب أخرى بهذا الشكل، ولن أتركك وحدك أبدا، ولن أقبل بأى حصار آخر.. أرجو.. آمل.. آه قتلونا.. مباحثات فوق أرض الكيلو مائة وواحد.. وذلك الجنرال المصرى الرفيع، الفرعونى الأصيل، صعيدى العناد، له صبر الفلاح البحيرى، صاحب النظرة الثاقبة. أعرفه فقد كان يوما قائدي، هو يفاوض اليهود هناك في كل اجتماع، ورغم أنه يعرف حجم المشكلة لدينا فإنه لم يتنازل ونصفق له رغم أنه أطال أيام الألم.

لا.. ما فات قد مات. والأيام التي مرت أصبحت في حكم النسيان، وماعانيناه، نسيناه، فقط، ننتظر الباقى.. لا.. مافات لم يمت، ولن يحدث ذلك وسوف يظل حيا مادام التاريخ قد دونوه فى صحف وكتب وشرائط كاسيت وسينما، لا... نحن دوناه في عقولنا ووجدان أبنائنا.. دونا النصر وانتهى، فقط إلا خمسة.. وسوف تنتهى، ينهيها الجنرال المصري المكار في محادثات طويلة صعبة مملة. ولن ينتقص من فرحة عزتنا حصار شهور، ألست معى. قائمة الشهداء طويلة، أعزاء علينا قبلكم، ماتوا من أجلنا، أحببناهم وأحبونا وسبقونا.

الرسالة الأخيرة... قبل العودة

الله أكبر.،. نادي المؤذن أذان المغرب.. وكأنما فتحت طاقة جهنم. سمعت الأرض ترتج حولى وطلقات الرصاص تدوى كالمجنونة من كل اتجاه، وخرجت أحمل سلاحى ربما داورية اسرائيلية استطاعت شيئا.

وجدت الجميع يقفون كأنما زرعت الأرض رجالا، وكلهم يرفعون أسلحتهم لأعلي يطلقون النار إلى السماء، الطلقات لها وميض الشهاب، خط أحمر يبين مسارها شد عيني أحاول ربط المسائل. وجدت خيوط نيران البنادق والمسدسات ورشاشات العربات الخفيفة والمدرعة، والرشاشات الأخرى المضادة للطائرات تقابلت ترسم أشكالاً في السماء، كأنهم كلهم اتفقوا على أن ينتهوا من خط الذخيرة المكدس لديهم قبل أن يحل أذان العشاء.

وللعجب لم نكن وحدنا نطلق النار إلى السماء، كان هناك من يطلقون النار أيضا في نفس الاتجاه وبنفس الكثافة والفرحة، لقد أطلق الإسرائيليون نيرانهم أيضا. ونحن وهم فرحون بإتمام الاتفاق وفتح الطريق عند الفجر، وبتنا نحلم بالطريق المفتوح. لم ننم أبدا لا نحن ولا هم. كانت مظاهرة لم تحدث ولن تتكرر ثانية، استمرت برهة من الزمن اقشعرت فيها أبداننا ورؤوسنا فرحين بالحرية، لقد كنا نحاصرهم، وهم يحاصروننا وانتهى الآن كل شيء ووضعنا بصمة التاريخ أننا حررنا سيناء، وأنهينا الموقف، واحتفلنا بالشهداء، وأطلقنا باقى الرصاص تحية لكل من ساهم في نصرنا أو ساعد علي صبرنا.

ياحبيبتى يا مصر.. غنوها.. ولكن لن تفعلوها أبدا مثلنا، حاولوا بطريقتكم، لكن نغماتنا كان يقودها مايسترو عظيم يخطط لكل شيء دائما، كنا لا نعلم وسنظل لا نعلم مافي المستقبل، وكانت أولي نغماتنا الله أكبر، سمعتموها كلكم ونقشت كلمات الحمد في القلوب. يا حبيبتى.. ساعات وأكون هناك معكم .. انتظرونى.

تحية إلى سائق التاكسى

في منتصف ليلة الخامس من فبراير انتهت محنة انتظاري أمام نادي ضباط مصر الجديدة، أريد أن أطير إلى ناسى، أضمهم كلهم إلى حضنى. تاكسى توقف أمامى وفتح السائق الباب وجلست بسرعة، وقبل أن أطلب منه السير، رأيت الرجل يتفرس في وجهي ثم سألنى: هل أنت من قوات بدر؟ الحمد لله على سلامتك يا بطل، مصر كلها كانت معكم، وأدار السيارة وانطلق وكلمات العرفان والشكر والتقدير لا تنقطع في سيل منهمر جعلني أحس أنكم جميعا بالفعل كنتم معنا كل لحظة. أمام منزلى نزل السائق وصافحنى بقوة يعبر عن مشاعره الجياشة، ولما قدمت له النقود تراجع الرجل متعجبا وأطرق ورأيت في عينيه دموعا تلمع، وقال أنه لم يشترك في الحرب، ولا يريد أن أحرمه من هدية يقدمها لبطل من قوات بدر. قبل أن أرد للرجل تحيته انطلق مسرعا وتركنى. استدرت وصعدت سلم بيتي جريا، ثم لم أرفع يدى من فوق الجرس، وأخيرا وجدت نفسى في أحضان زوجتى وابنتى، وانهمرت دموع وانطلقت ضحكات فرحة.

* * *

أجلس فى البهو الرخامى الكبير. أراقب من حولى . يتناهى إلى سمعى موسيقى رقيقة. تدنو الممرضة تسألني وتأخذ الأوراق . أتتبعها ببصرى . تجلس أمام الكمبيوتر تسجل بياناتى . تمر الدقائق وتومئ إلىَّ أنه حان دورى.

أقول للطبيب إصابتي حدثت وقت الحرب أعاني بعدها آلاما تعاودنى كلما بذلت مجهوداً . قال ستتحسن مع العلاج ويمكنك الاستعانة بعصا أنيقة نقدمها لك بعد قليل .

يقترب رجل فى مثل عمرى . يسألني الجلوس إلى جوارى . أفسح له موافقاً . أمعن النظر. يمسك ساقه يزيحه جانباً ليستريح فى جلسته . أحمد الله .

من الباب الجانبى يخرج أحدهم حاملا ذراعاً، ينادى العريف صادق الذى يقف متجهاً إلى غرفة القياس . تمر دقائق أرى بعدها آخراً يحمل ساقاً كاملة لها حذاء جلدى، ينادى العميد منصور ليدخلا معا غرفة أخرى . يتتابعون وفى أيديهم أطرافا صناعيه، أجزاء أو كاملة ينادون على أصحابها ، وكلهم زملاء حاربوا إلى جانبى وفقدوا بعضا من أجسادهم ، وكلنا نحس أن إصاباتنا أوسمة نحملها ، نزهو بها .

يقترب مهندس مركز التأهيل يطلب منى الصبر بعض الوقت فإن الزملاء حضروا قبلى . أهز رأسي موافقاً . يقول جارى ذو الساق الصناعية لا تقلق فإن أمامهم عمل كثير لأنهم يدققون المقاسات حتى لا تضايقنا الأجهزة . هل سمعت

الأخبار ؟ ماذا تريد أمريكا أن تفعل ؟ أرفع حاجبىَّ فى تساؤل . يكمل الرجل ، لا يكفيها أنها تقود العالم، تريد فرض كل شيء علينا . سياستها أن يصبح العالم كيفما تخطط .

أقول .. العولمة هكذا .
يقول .. نعم .. لابد أن يكون مذاق الدجاج واحداً فى كل بلاد العالم .
.. كيف ؟
.. إنتشرت فروع كنتاكى فى مدن كثيرة .
.. العولمة أكبر من ذلك .
.. أعرف ، ولكن الهامبورجر من ويمبى والكوكاكولا أيضا .
.. هكذا يسود الدولار ويتزعم العملات الأخرى .
.. ذلك حاصل بالفعل بعد أن أصبح العالم قرية صغيرة .
.. الدش جعلنا نرى كل محطات العالم ونسمع أخبارهم مباشرة ، ولا تنس مراكز الانترنت فى كل شارع والبريد الألكتروني دخل بيوتاً كثيرة . وهكذا سيتوحد الفكر الإنساني .
.. هل تذوب الأديان والقيم ويسود الأمريكي ؟
.. أطلقوا قمراً يرصد الأهداف ويوجه الصواريخ إليها بالليزر والحرارة والمغناطيسية ، ثم لا يتفوقون رغم ذلك على الإنسان المقاتل .
.. فى افغانستان الآلاف يموتون أو يجرحون أو يهجرون بلادهم خوفاً من النار الأمريكية، ومن المؤكد أنهم سيحتاجون أطرافا صناعية مثلنا .

يقول .. فقدت ساقى فى معركة أكتوبر . هل حاربت أنت أيضا ؟
أقول .. طبعاً، كنت ضمن قوات بدر فى الحصار حتى أول فبراير من العام التالى . لقد فعلنا الكثير . أذكر أيام التدريب القاسية ننتظر عام الحسم الذى مر هادئاً.

كان طبيعياً أن أساله كيف فقد ساقه ، ربما كان ينتظر أن يسألنى نفس السؤال . شردت عيناه بعيداً ، كأنما يرفع الغطاء عن عينيه ليؤكد صدق مايقول، فرحا أن يحكى بطولته لمن يقدرها.

يقول .. أسبوع كامل مر على عبورنا بعد أن استطعت التقدم محققاً كل المهام التى خططناها.

كان جنودى يحسنون مواقعهم الهجومية بعد أن قام المهندسون العسكريون بتخطيطها وحفرها، تد عيماً لهجومنا الجديد ، وحتى يتحمل الخط ضربات المدفعية والصواريخ والطيران ، وتحسبا لأي هجوم مضاد للعدو قد يقوم به لاستعادة الأوضاع القديمة فى سيناء بهدف طردناً غرباً .

كانت همة جنودى عالية ، يغنون مع الراديو أناشيد النصر . يحسون أن الشعب يشاركهم فرحتهم .

بينما كنا نعيش لحظات انتصارنا ، فاجأتنا قذائف مدافعهم تعطلنا عن تجهـــيز الخـــط. وكما تعودنا سرعان ما سجلت قواتنا مكان الأسلحة التى تقصفنا ، وبدأت تضربها لإسكاتها. فكنا نعيش ساعتها معزوفة متبادلة نحطم لهم فيها مواقعهم التى فروا إليها ، ويحاولون إصابتنا.

لم تدم فرحتى طويلاً . انهمرت دانات المدفعية تنفجر محدثة الدوى الكبير وشظاياها الحارقة تغمر المكان ، وأفر إلى ثنية أرضية أستتر بها ، وأنتقل إلى أخرى آملا أن يرفعوا الضرب بعيداً أو يتوقف . لكن شظية كان مقدراً لها أن تمر خلالى واختارت ساقى اليسرى، وها أنا كما ترى كتب لى أن يسعفونى ويأخذوني إلى المستشفى ، وأصبح لى ساقاً صناعية أضع فوقها أحفادي وأحكى بطولاتنا التى أريد غرسها فيهم .

يسألني .. كيـــف أصـــبت؟ قـــبل أن أرد أسمع الممرض ينادى الممرض العقـــيد محمـــود شـــريف. يرفع جارى يده مجاوباً فينقطع الحديث . أقول سأنتظـــرك حـــتى تنتـــهى من القـــياس .

* * *

البــارومـــة

في مواجهة ساحة المسجد الكبير حدث الأثم الكبير . عندما ظهر الأوتوبيس الأزرق الفاخر دق قلبه متسارعا ليتحفز ويبدأ العمل . قام يلوح للأخوة بالاشارة المتفق عليها. وقف أحدهم من بعيد وألقى بالحجارة على الزجاج الامامى للاوتوبيس. عندما أحس السائق بالخطر زاد من سرعته حتى يتفادى أعمال الصبيه عندما يلقون الأحجار على السيارات المارة.
انفجرت عبوة ناسفة داخل الأوتوبيس فتوقف . تصاعد الدخان كثيفا مع التراب إلى أعلى . سقط الركاب على مقاعدهم فى نفس اللحظة التى تناثرت فيه الدماء تغطى كل شىء ، وانفجرت العبوة الثانية خارج الأوتوبيس لتطيح بأشلاء الباعة الذين يعتمدون على السياح فى رزقهم يبيعون لهم التذكارات الصغيرة . قتل بعضهم وآخرون يرقدون فى أماكنهم ينزفون الدم . بينهم أطفال متسولون كانوا يرجون أن يحصلوا على بعض المال من الخواجات الذين جاءوا لمشاهدة المسجد والكنيسة القديمة.

نجحت العملية واستطاعوا أن يصيبوا السياح ويقتلوا أحدهم ولابد من التضحية بشىء، وكان الفقراء الأبرياء الثمن . فى الحى الشعبى وشهامة المصريين تدفعهم لتقديم العون فى وقت اللزوم ، اندفع الجميع لانقاذ ما يمكن .
المجموعة خمسة أفراد ، ثلاثة للتنفيذ ، وآخرين للانذار والتغطية عند الانسحاب. قاموا بالمهمة خير قيام وفتحوا النار يصوبونها كيفما اتفق يطلقونها لتغطية انسحاب المجموعة ، كما لو كان الكمين الذى نصبوه فى أرض الأعداء ولابد أن يحققوا أكبر خسائر بشرية ممكنة ، ثم التخلص من الموقف والهرب حيث لا يمكن أن يصل إليهم أحد . كان ذلك سهلا بسيطا فالشوارع الضيقة فى المنطقة الأثرية القديمة تسمح بالفرار حتى الطريق الرئيسى حيث يذوبون فى الزحام.

دقات القلب قوية متلاحقة وأنفاس ساخنة وعرق يغمر الجسم كله وهانى يجرى مراوغا . يخفى المسدس بين ملابسه . يهدىء من سرعته عندما يدخل إلى الطريق العام ليقف مع المنتظرين على محطة الأتوبيس ، فهذه نقطة المقابلة بعد تنفيذ العملية . لحقه عزت وثابت

ولبيب وتأخر حنفى بضع دقائق مرت عليهم طويلة . يتبادلون نظرات القلق بينما البيجو البيضاء تقف على بعد أمتار منهم . يطلق السائق النفير متقطعا يحفزهم أن يتحركوا ، فى الوقت الذى اكتمل عددهم فقفزوا إلى السيارة لتسرع بهم إلى خارج القاهرة على أطراف المدينة.

كل شىء تمام . كلهم موجودون . والأسلحة معهم . لم يسقط من أحدهم شيئا فقد تركوا الأوراق وتحقيق الشخصية والنقود قبل أن يخرجوا إلى العملية الفدائية المحكمة . الطريق طويل والصمت يلف الجميع . اشتعلت لفافات الدخان يجذبون منها أنفاسا شرهة ربما أعانتهم أن يتمالكوا أعصابهم . هانى أطرق رأسه بينما أفكاره تتلاحق . يسترجع المشهد الأخير مرات فقد كان الطفل يرقد على الأرض ممسكا بآية قرآنية مطبوعة لم يقرأ ما فيها وإن انطبع فى عينيه كلمات ثلاث "ومن شر ما خلق ". الطفل راقد انبثق من عينيه وأذنيه وفمه وأنفه دم أحمر سال الى التراب . عيناه فزعتان مفتوحتان . من شر ما خلق . سأل نفسه هل أصبح هانى هو الشر نفسه؟ الطفل قتل . ولم يكن مخططا أن يموت فقد قصدوا الأوتوبيس فقط.

التفت الجميع إلى هناك هانى عندما سمعوا صوت البكاء . أمطروه وابلا من كلمات السخرية والاستهزاء يعايرونه أنه طفل رغم أنه تجاوز الثانية والعشرين . يعايرونه أنه خائف ، لقد مر الموقف كله وخرجوا منه سالمين ، وحتى الجن الأزرق لن يصل إليهم . أمن على كلامهم السائق وهانى مطبوع فى عينيه رأس الطفل كتب حولها كلمات ثلاث . الآن أصبح شرما خلق والأمر لله.

نقص عدد الأولاد واحدا . ثلاثة شهور والدكتور محمود ونيفين زوجته يبحثون عن هانى بعد أن سألوا الأقارب والجيران والأصدقاء . بحثوا فى المستشفيات ، وساعدتهم الشرطة ونشروا اعلانات فى الصحف والمجلات يناشدون هانى العودة إليهم . كانت انفعالاتهم فى أوائل اختفاء هانى عالية ، ووصلت الذروة وتضاءلت تدريجيا يتذكرونه كل يوم ، ثم مرة كل يومين ، وانتهوا إلى أن يذكروه على الأقل مرة كل أسبوع . الدكتور محمود كثير المشاغل والاهتمامات ، أبحاثه تناقش وتنشر، ومحاضرات فى الجامعة تستغرق وقتا طويلا . تمتص عيادته باقى الوقت حتى يدخل بيته فى الساعات الأخيرة عندما يكون الجميع نائمين . يسترجع على وسادته كيف كان يومه ، وقد

ينهض لينظر فى مفكرته ليتذكر موعد تسجيل حلقته القادمة فى التليفزيون .

أما نيفين فإن يومها لايقل فى زحمته عن الدكتور محمود ، فإلى جوار عملها كمحاسبة ناجحة فى مكتبها الاستشارى ، فإن لها نشاطا ملموسا فى الجمعيات الخيرية التى تدعوا إلى محاربة الايدز .
تهتم بجميع النشرات الطبية العالمية لمحاصرة الوباء الجديد ، كيلا يخرج شباب مصر من مطار القاهرة إلى بلاد العالم دون أن يحصلوا على جرعة مناسبة من التوعية ، حتى لايصابوا به فى ملاهى أوروبا وأمريكا وبلاد الأغراب ، فتدلهم على أحسن سبل الوقاية الطبية عندما يرغبون فى المتعة المحرمة ، وتضع لهم فى نهاية الاعلان الآيات القرآنية التى تحث على العفة ، كأنما كل الشباب يسافرون إلى هناك . لاتبخل نيفين باجتماعات تستغرق الوقت فى المساء مع أعضاء النادى حيث تنشر دعوتها ، وتوافق أخيرا أن ترشح نفسها لمجلس الادارة الجديد . لم يبخل الدكتور محمود ونيفين على اولادهم الأربعة بشىء أبدا ، فقد ألحقوهم منذ صغرهم بتلك المدرسة الراقية التى تعلم الأولاد بالانجليزية وتوصلهم سيارة المدرسة يوميا إلى المنزل لتلافى أخطار الطريق وتجنبهم الاختلاط بالعامة فى الطرقات لينشأوا فى جو راق، أيضا اشتركوا لهم فى النادى يمارسون فيه الألعاب المختلفة ، بدأوا فيها جميعها ثم تركوها عندما كبروا ليجلسوا فوق السيارات يدخنون ويجربون ، ثم ربما ينزلقون داخلها يكتشفون شيئا جديدا ، لافرق بين ولد وبنت . بعد أن قلق الاخوة على هانى تضاءل قلقهم ، عادوا لمواعيدهم ولقاءتهم مع الأصدقاء فى النادى . يتجمعون ثم يتفرقون إلى شقة أحدهم لمشاهدة فيلم فيديو ، أو اكتشاف بانجو من نوع ممتاز ، أو قرص مستورد جديد ليس له آثار جانبية . ويجتمعون مرة أخرى فى النادى ليعودوا قبل عودة الدكتور محمود ونيفين مرهقين من أعمال النهار والليل بعد أن حققوا الكثير فى خدمة العلم والمجتمع.

هانى كان البكرى والاهتمام به كان فى الذروة ،تضاءل بعد وصول اخوته مرة بعد الأخرى .اهتم به كل من يعمل فى المنزل ، دادة وخادمة وسائق وسكرتير والده أيضا . نشأ مسموع الكلمة حاد الرأى عنيد فى النهاية . ولما كان رأى هانى نهائيا ، فعندما لاحظ الدكتور محمود أنه يختفى أياما ويعود ، ظن أنه يشترك فى معسكرات الجوالة بالجامعة ولم يعلق كثيرا ، وعندما تردد عليه فى المنزل بعضهم أثارت ملابسهم المتواضعة مشاعر نيفين سألته أن يرتفع بمستواه عن مصادقة هولاء الفقراء . هانى نفسه لم يكن يتصور يوما ان يترك

أصدقاءه بالنادى لينضم إلى هؤلاء . وجدهم مجموعة ساخطة على الكل تشكو فساد الجميع ، لا ينشدود شهرة أو مالا . كل همهم جهاد ونضال يهدفون إلى الحكومة لاصلاح الفساد الذى انتشر . مثلهم الأعلى أبطـــــــال يرونهم وحدهم ، يريدون الانتمـــاء
إليـــــــهم ، قضيتهم الصلاح ، الحكومة فاسدة كلها ، والبوليس كلاب السلطة . المفتى إمعة ووزير التموين أكبر لص قانونى . ووزير التعليم يهدم التعليم والتربية . أما وزير الصحة فهو منافق يتكسب من أنظر حولك واتفاقيات موانع الحمل ، ووزير الثقافة يتاجر فى كل شىء . كل وزير منهم يطأطىء ليحافظ على كرسيه ، ومجلس الشعب والشورى انتخاباتهم باطلة، وكلهم معينون من الحزب الحاكم الذى يسعى للسلطة وهو فيها. الأحزاب الأخرى تسعى للحكم حتى لايفقدوا جزءا من الكعكة الكبيرة . مصر الهدف ينهشونها قطعة بعد الأخرى . مخروبة هى ، ولن يضيرها زيادة الخراب .
السياحة ثلث الميزانية ، نخربها ويموت الناس ، ويظهر للعالم كله موقفنا، فلابد لنا من دعم خارجى ونلفت النظر إلينا ليرونا . هؤلاء الذين يزعمون أنهم زعماء البلد لابد أن نصطادهم واحدا بعد الآخر ولايهم الترتيب . عندما يحصلون على الحكم ، سوف يضعون كل شىء مكانه ويحاكمون الحكومة والخونة . هم المخ والعضلات والوقود والأدوات ، وسوف يحصلون على السلاح والذخيرة ، والأفكار موجودة ولايبقى سوى التنفيذ . هانى غرق معهم فى أفكارهم وخططهم . هكذا كانت رؤيتهم وتوهم نفسه عملاقا كما توهموا هم.

الأستاذة نيفين فى المؤتمر الكبير . يبحثون مشاكل الشباب فى المجتمع ليخططوا منهاجا لامتصاص طاقات الشباب لخدمة البيئة . قالت أنهم لابد أن يزرعوا الأشجار فى الشوارع وحول المدارس والبيوت ، ويشتركوا فى نظافة شوارعهم لأنها أصبحت قذرة ، فإنها عندما تسير ترى أحيانا بعض النفايات ازدادت فى الفترة الأخيرة . فإن الشباب عندما يشتركون فى هذه الأعمال فسوف يحبون بلدهم أكثر، ويذاكرون دروسهم بهمة .
أما الذين لن يشتركوا فإنهم لديهم طاقة عاطلة ووقت فراغ كبير، فينضمون إلى رفاق السوء، ويشاهدون أفلام العرى على الأطباق الكبيرة وأجهزة الفيديو ، وسوف يدخنون الحشيش والبانجو الكوكايين والهيروين ، وقد يتجه بعضهم إلى الحقن والبرشام ، وسوف تتجه مجموعة منهم إلى الارهاب أو إلى القمار والاتجار فى الممنوعات ، وأشارت إلى أن دور الأسرة مهم جدا فى منع الانحرافات بين الشباب حيث يجب أن يكون الأب والأم قدوة لأولادهم يشملونهم بالرعاية

ويتفرغون للاهتمام بالنشىء الجديد . صفق المؤتمر طويلا وأدرج اقتراحها بتشجير الشوارع حول المدارس والبيوت فى قائمة توصيات المؤتمر.

الدكتور محمود فى حديثة فى التليفزيون بين آثار الهيروويين على خلايا المخ ، وأوضح تأثيرة على الأعصاب وطريقة التفكير ، ولم ينس أن يشير إلى أن مدمن الهيروين قد أصبح عبئا على المجتمع والأسرة ، وأن الخطر قد زحف ودخل البيوت المصرية . قال أنه يجب على الآباء والأمهات مراقبة أولادهم لاكتشاف انحرافاتهم فى الوقت المناسب لتقويمهم ، وأوصى المشاهدين بالتركيز على الاقتراب من النشىء الجديد للتعرف على أفكارهم واتجاهاتهم واستشهد بالحديث والقرآن وحمل الآباء مسؤلية كبيرة ، حيث انشغلوا جميعا بأعمالهم وجمع المال وتركوا أولادهم ينحرفون.

قتيل واحد وستة عشر مصابا بينهم اثنين فى حالة خطرة . نقل الجميع الى المستشفيات . الطائرة جاهزة لنقل من تسمح حالتهم من السياح إلى بلادهم فورا لاستكمال العلاج . صور المصابين، وجولة رئيس الوزراء مع وزير الصحة بين الأسرة البيضاء يبادلون الجرحى الكلمات الباسمة وربما الضاحكة . يعلنون بهذه الصور تفاهة تأثير العملية على الشعب والحكومة . انتقل المذيع ليقرأ حالة الطقس والأمطار ، وانتهى الكلام والموقف والأحداث . الصحف تنشر أخبار مجهودات الشرطة لتعقب الارهابين للقبض عليهم بينما لاتوجد لديهم أية أدلة أو صور أو معلومات . اذن فليبحثوا.

قال هانى تعرف يا عزت عندنا أربع عربيات . منهم واحدة مرسيدس بودرة والثانية بىإم يمكن ثمنهم يساوى ميزانية القاهرة من كام سنة . دائما أحس إن ثمنم من دم المرضى وآلامهم . الناس تعبانة ومش لاقية ثمن العيش . رد عزت قائلا أن ابن خالتة أقام فرحه بالقاعة الذهبية فى سميراميس تكلف سبعة وسبعين ألف جنيه بين ايجار القاعة والبوفيه وأجور الفنانين وتصوير الفيديو. المحطة داخل القاعة فيها أربعة كاميرات ثابته واحدة محمولة يدور بها المصور ليسجل الحدث . رغم ذلك كان الجميع ينتقدون بخل العريس وتواضع الحفل خاصة البوفيه . تساءل كيف يكون ذلك ؟ لا الاشتراكية نافعة ولا

الرأسمالية ولا الحزب الواحد ولاتعدد الأحزاب . والديمقراطية كلمة وصورة وشكل للاستهلاك فى الصحافة.
لبيب قال متفاخرا لقد اصطادت مجموعتهم خمسه من البوليس ومات منا اثنين ولم يستطيعوا القبض على أحد ، وأنا لا أخاف بل يدفعنى ذلك إلى تركيز التفكير فى كيفية تأمين العمليات ، فإنهم يظنون أنه ليس لدينا عقول تعى وأننا سوف نخاف .لا.. سوف نزيد عملياتنا وإصرارنا ولن نهزم فنحن على حق وهم على باطل ولابد أن نسود.

فى النادى الأرستقراطى المعركة الانتخابية على أشدها ، وزعت خلالها نيفين صورا وبرنامجا ومنشورات الدعاية ، ولم تكف أبدا عن الاتصالات بالأعضاء والمسؤولين ليدعموا موقفها ويظهروا معها فى تراس النادى . صرفت مبالغ كبيرة على المطبوعات واللافتات وآن لهـــــا أن تجنى ثمار مجهوداتها التى يمكن أن تصفها أنها غاية الإخلاص والحب لناديها الذى تفضل الموت من أجله عن الهزيمة فى الانتخابات .
يتصارع ثلاث حيزبونات ينافسنها على المركز الذى رشحت نفسها إليـــــه . كللت مساعيها بالنجاح لترتاح فى النهاية وتفوز ويظهر اسمها فى قائمة أعضاء مجلس الادارة تنشرها الصحف القومية والمعارضة ومجلات النساء . لتتوارى إلى الخلف قضية الغائب من شهور.

الشيخ على المنبر يزعق . أفيقوا .. الحكومه ليست حاضنة حتى المعاش . الحكومة سياسة وإدارة وتوجيه . الناس تشتغل لتعيش . لم يكن زمان مرتبات . كان جهاد فى سبيل الله ، وكان جهاد فى سبيل الوطن . خباز ونجار وترزى وفلاح وأسطى يديه تلف فى الحرير.
يفخرون من أيام الفراعنه بالأهرام ، وحتـــى محمد على بمدرسة الصنائع وقوافل الحرفيين ، وبـــــنك طلعت حـــــرب ليـــس ببعيـــــــد ، وشركاته قائمة تعمل .
المليونيرات القدامى كلهم رجال ادارة وصناعة وزراعة وأعمال . اليوم مليونيرات تجار ، أكثرهم شطار وباقى الناس مطحونون ينتظرون أن تبسط الحكومة يدها لهم . كيف؟
ندوق النقد الدولى لابد أن يضمن فلوسه عندنا . إذن لابد من برامج وخطة واصلاح للاقتصاد وخصخصه وسعر واحد للدولار . لابد من رفع سعر الكهرباء والوقود والخدمات .

رفعوا أيضا المرتبات مرات ثلاث ، لكن الكساد العالمى لايرحم ، والوزارة مكتوفة ، والدولة مديونة ، والناس تتوالد كالأرانب ، وانظر حولك لم تعد تفيد كثيرا . الملايين تضاعفت والأرض ضاقت . مكاتب الحكومة أيضا ، ومدرجات الجامعة . والكل يريد شهادات جامعية. المدارس ملآنه صبيان وبنات. سنوات ويصبحون جميعا عرائس وعرسان يطلبون وظائف ومساكن ومرتبات ، ليزيدوا بعدها الملايين كل سنة مليون آخر بفم مفتوح وأمل فى حياة طبيعية . كيف؟ طوابير العاطلين تطول من العزاب وراغبى الزواج وبطالة تتسع بترحاب.

الحل غزو الصحراء ، ومشروعات حرفية ، والهجرة. عندنا الاعتمادات والوزراء والخبراء وصناديق الدعم والمشورة . هناك البيروقراطية والقوانين الجامدة والعتيقة. انسفوها ، فقط العمل والانتاج . كل الكلام معروف . لاأحد يريد أو يحاول أن يفهم . الكل يهدف للمرتب الثابت والمعاش . مطلوب أجازات بدون مرتب للضمان . المشكلة الجهل، والناس لاتفهم مايدور، ويستعجلون الأمور لابد للحكم أن يفهم المحكوم. الجهل يعمر الجميع. الشباب عاطل يريد أن يفعل أى شىء ، ويثور ويسير خلف أى أمل. الحل مصانع وزارعة وتجارة . ليس الحل قنابل ورصاص وأعمال العصابات. لن نصل هكذا إلى أى شىء . عشرات الألوف قتلوا فى حرب ستة وخمسين ، وفى بورسعيد، واليمن، وسبعة وستين، وثلاثة وسبعين . كلهم حاربوا لشرف الوطن والعلم ، وألوف ماتوا فى حوادث الطائرات والقطارات والسيارات والطريق ، وحوادث أخرى مات فيها المئات بين القضاء والقدر والاهمال والانتحار . كل يوم قتيل أو أكثر من الشرطة مقابل العشرات فى الحوادث . للجيش جنود ماتوا على الحدود ، وللشرطة رجال ماتوا فى حضن مصر، وكلهم شهداء أدوا واجبهم، وغيرهم سيقومون بدورهم . العجلة لابد أن تدور، وقتلى جدد ومساجين من شباب جاهل كان كله أمل أن يصلح الكون . أوقفوا الجهل . اضيئوا الطريق . وضحوا المعالم ، وساعدوهم، ربما. ينزل الشيخ عن المنبر ، أو ينتهى برنامج التليفزيون ، أو يديروه إلى قناة أخرى بدلا من الكلام المرصوص ، وربما فهم بعضهم مايدور.

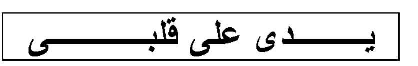
الرجل العجوز يرى أنهم شباب أقوياء لايعلمون ولايدرسون ولايزورهم أحد . ولاهم يسألون ولايهتمون ، ولايرى مايريب . فقط قلق من طول رقادهم ليلا ونهارا ، فمن أين يتكسبون ويدفعون أجرة سكنهم وطعامهم . قرر الرجل وأفضى بمخاوفه إلى ضباط المباحث.

بعد المغرب كانت الدائرة تضيق حول المنزل الريفى البعيد عند أطراف القاهرة . جنودا لبسوا ثيابا سوداء وبخفة الفهود اقتربوا كثيرا . همس ضباط الشرطة لزميله .. لقد كان الشيوعيون يعيشون فى خلايا مثل التى تحدث الآن وإن اختلفت الظروف . دائما كنا نعرف أماكنهم وبعد قليل سيكونون بين أيدينا ونعرف ماذا يفعلون .
ضاقت الدائرة أكثر حتى وصلوا إلى الباب وتسمعوا الأصوات . ولما طرق الضابط مرتين أجاب أحدهم فى كسل يسأل عن الطارق . ردت المرأة التى صحبت مجوعة الاقتحام وفتح الباب .

لما كان الدور على هانى فى الاستجواب ، جلس واضعا رأسه بين يديه لحظة وانفجر فى بكاء عميق . تبادل الضابط مع زميله نظرة مفهومة ، فقد تعودوا على هذه التمثيليات البسيطة يرونهم يفعلون هكذا ليتخلصوا من الموقف . إلا أن هانى ألقى بهديته عندما قال باكيا شر ما خلق هو أنا . لقد رأيت الطفل راقدا ، وانبثق من عينيه وأذنيه وفمه وأنفه دم أحمر سال إلى التراب ، وعيناه فزعتان مفتوحتان .
ربت الضابط على كتف هانى يشجعه ليطمئن ويستمر ، وابتسم يبادل زميله وتنهد كل منهما فى ارتياح ، وصدر بيان جديد عن وزارة الداخلية.

توقفت كل الأمور، وامتنع الأستاذ عن الدخول الى الجامعة والتليفزيون والعيادة. لبست السيدة نيفين السواد فى فستان أنيق . امتنع أخوه هانى عن الذهاب إلى المدرسة ، خافوا من عيون الجيران والأقارب والزملاء .
الناس أيضا خافوا أن يجرحوهم بالسؤال .عاشوا فى دهشة وحسرة حزانى موحودين . فى المساء جلست نيفين تردد لنفسها كلمات الدكتور محمود التى سمعتها فى التليفزيون عن الاقتراب من الأولاد للتعرف على أفكارهم واتجاهاتهم . نظرت إليه حانقة فوجدته يرمقها ربما ليلومها على اهتمامها بكرسى مجلس الادارة التى سعت اليه كثيرا.

* * *


يـــــدى على قلبـــــى

فرت بثينة إلى ركن الحجرة تحتمى بأولادها من ضربات زوجها القاسية . صراخها يملأ المكان . مهددة مولولة تلعن الأب وجدوده وكل شىء . تزيح الأولاد من حولها مكتفية بهمها الذى يحوطها . ما هى إلا أيام ووصلتها ورقة طلاقها . باكية همست لنفسها أحسن، وشعرت أنها قد تحررت من سجنها.

ابنها حشمت وشى بها عند أبيه . نقل إليه مقابلتها مع المعلم حنفى صاحب مغلق الخشب المجاور . كل مرة كان حشمت هو السبب ، لذا فهى لا تحبه وتهرب من نظراته المتسائلة كأنما يفهم كل شىء . كبر حشمت وأمه بثينة أو بوسة كما يناديها دائما تختفى كثيرا ، ثم تأتى للمنزل ومعها الطعام ، أو لاتأتى ، فينتظرها حتى ينام جائعا الى جوار قسمت أخته.

تترآءى له صورة قديمه تلح عليه عندما كانت أمه بملابسها الداخلية تتظاهر أنها تؤدى عملا فى بيت الأستاذ مصطفى جارهم ، بينما يدور حولها يتلمسها عندما تكون زوجته خارج البيت . صورة انطبعت فى ذاكرته لاتزول . صور أخرى تتابعت عندما كان يراها تقف فى الطريق باسمه تتمايل فى دلال ، تبادل الرجال الحديث يخطبون ودها ، وهى تجذبه من يده حتى لايبتعد عنها ، ثم تكمل كلاما لا يسمعه.

سنوات المدرسة مرت على حشمت ، وزملائه سبقوه كثيرا ثم حصل على الدبلوم بالصدفة قبل أن تضيع السنوات . أخته تركت الدراسة لتهتم بنفسها وتسير على درب أمها ، وإن كانت تساعده أحيانا . حشمت كان قد توقف عند قهوة الناصية كأنما سكن فيها ليلا ونهارا. أصبح أمهر لاعبى الطاولة والكوتشينة ، يكسب من اللاعبين كثيرا ، وقد يخسر أحيانا فأصبح ذلك موردا ثابتا له . بوسه وقسمت يعطونه ما

يطلب من المال حتى لا يشاكسهما فيخرج ويجلس من جديد فى مكانه المفضل على قهوة الناصية.

يوما لم يحضر الأصدقاء . حشمت جلس وحيدا يفكر فيما هو فيه . راح تفكيره لأمه وأخته وعلاقته بهم . الهمسات التى تدور يسمع اسمه فيها مع بسمات خبيثة . زاد همه تعطله رغم أنه لم يبحث كثيرا عن فرصة لأنه يعرف أن الكل لايعمل ، ثم أنه لا يجيد صنعه حتى الآن . جثم على قلبه هم كبير . ولأول مرة يحس هذا الشعور ، فقام يروح عن نفسه ويمشى حتى الميدان ويعود ربما جاء الأصدقاء .

لم يكد يهم حتى وجد راجح صديقه أمامه بعد غيبة يأخذه بالأحضان ، فعاد به إلى مجلسه المختار. راجح سمع شكواه من الفراغ وقلة العمل وانشغال ألام والأخت عنه . الحل بسيط ، والهموم تزول باذن الله . كلام راجح مريح ناعم يهدىء الأعصاب . تغير فى راجح شىء . طالت لحيته وحلق شاربه وارتدى الجلباب القصير تحته سروال أبيض ، ووضع طاقية فوق رأسه "إيه الحكاية "؟ سأل حشمت عن التغير. قال راجح إن الله هو الهادى .. ونعم بالله .. وقاما معا . وأخذه راجح للأمير.

هناك بدأ حشمت ، ونسى جلسة المقهى وقسمت وبوسه . وجوه جامدة تبدو طيبة . يتحدثون ببطء وحماس . يمسكون المصحف بيد والأخرى تحمل السبحة الطويلة . كلامهم عن الحلال والحرام.
أهلا أخونا . أصبحو ينادونه الأخ حشمت .الأمير سلمه لأخ ثالث اسمه درويش . اعتنى درويش بكل ما يلزم ، حتى إذا ما كانت صلاة العشاء وقف حشمت يصلى معهم لأول مرة فى حياته ودموعه تسيل على خده . أحس أنه كان عاصيا طوال عمره .
أحب حشمت الاقامة ، معهم واختفى عن الحارة والشارع والمقهى . كان حيرانا ضائعا يريد حضنا آمنا لم يجده أبدا . أبوه رحل من زمن ، وبوسه أحضانها للآخرين . حضنوه وجعلوه يهدأ ويستقر وأصبح له الهدف . أن يكون معهم ومنهم ، يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر . أجمل الكلمات وقال الله وقال الرسول ، والطعام موجود جاهز دائما عند أحدهم ، والسهرة قرآن وذكر ومناقشات، والأهم قراءة فى كتب أعطوها له.

مضت أيام الضيافة وحان وقت العمل والجهاد ، وجهادهم يتطلب المال . أعطوا حشمت صندوقا صغيرا خرج به مع الأخ درويش يجمع التبرعات ، للمجاهدين مرة وأخرى لبناء مســجد جديد . كان عندما يعود يفتحون الصندوق أمامه . الأمير قال خذ ما تشاء من مال الله حلال عليك . حشمت لا يريد المال ، تركه لهم إنه لايحتاجه .
يحتاج لأشياء أخرى منحوها له . لقد حصل على الأمان والأهمية والفاعلية ، وأحس أنه موجود ولابد أن يفعل شيئا أكبر مقابل حضنهم وأمانهم . تفانى معهم وبذل الكثير حتى زاد رضا الأمير عنه ، فأهداه الجلباب القصير والسروال والطاقية ، ثم سمح له أن يعتلى المنبر بعد شهرين من وصوله ، ويخطب فى الجماعة بعد أن قرأ القرآن وسمع الأحاديث . بعدها أعطوه أوراقا بها خطبة الجمعة مكتوبة ليحفظها ويلقيها بثقة وثبات ، فأضاف إليها سطورا من الكتب التى أعطوها له. ألقى خطبة الجمعة فيهم وأحس أنه أصبح عالما جليلا يسمعه كل هؤلاء ، ويثقون به ويحبونه.

ارتفع آذان الظهر فى ميدان الحسين ، فأسرع حشمت إلى المسجد ودخل ووقف وأدار عينيه فى الأنحاء . انبهر بالمكان ورنين الأصوات وجموع المصلين وصلى معهم . جلس بجوار أحد الأعمدة يتملى المكان والناس . أحس بالأمان ، ارتخت أعصابه وملامحه وأفكاره . حلقت روحه فوق الناس حوله .
توقفت عيناه على أحدهم ، كان شيخا كبيرا رآه ينظر إليه مليا . تبادلا الابتسام وأشار الشيخ أن يقترب الى جواره . سأله عن ملابسه وعمره وعما يحفظ من القرآن والحديث . تحمس حشمت وحكى أنه يخطب الجمعة للجماعة . ابتسم الشيخ وأوصاه أن يقرأ كثيرا ، وأن يبحث بنفسه فى كتب التفسير والحديث ودعا له بالهداية . كلما تكلم الشيخ أحس حشمت أنه يتضأل ويصغر أكثر ، ثم تمنى أن يدخل فى حضن الرجل الطيب.

علموا أولادكم الرماية . هيا يا إخوان . فى صحراء الهرم فى منطقة آمنة وجد حشمت بعض الأخوان سبقوهم وأعدوا كل شىء ، ووجد السلاح .علموه كيف يقبض على المسدس بقوة وكيف يصوب بدقة إلى الهدف . كيف يضع الطلقات فى مكانها فى خزنة المسدس ثم فى مقتل.
اكتشف أنه قناص بعد خمس طلقات فقط. أحس أنه يكبر ويقوى أكثر ويتعاظم عندما صفقوا له بعدما أصاب الهدف.
كان الدرس الثانى فى منزل أحدهم . لقد بدأ الجهاد الأكبر اذن . علموه الديناميت والجلجنايت وبوادى الانفجار . والمفجرات وفتيل الأمان

والآخر المتفجر ، وزمن الانفجار والدوائر . علم كبير حاول أن يفهمه ونجح أيضا . وبدأ الصمت يصبح طابعه . هم أمروه . يخفض صوته ويغض البصر كثيرا ويفكر معهم أكثر . يسمع كل شىء ، ويقرأ القرآن ويصلى أيضا . يقرأ كل ما يعطونه له ثم يقبل يد الأمير مثلهم .

الزواج نصف الدين . وهو شاب قوى قادر ويجب أن يأتى بنسل مسلم جيد يحيى الاسلام من جديد. اختر يا حشمت احدى الأخوات ، من تروق لك . إنه لا يعرف من سيختار، كلهن فى الحجرة المجاورة . نعم يسمع أصواتهن لكن لا الأسماء ولا الملامح يعرفها . كلهن يخفين وجوههن عدا العيون . سكت حشمت وتباسط الأمير ضاحكا وقال عندنا خمس أخوات جاهزات للزواج والأمر مقضى باذن الله .
نطق حشمت وقال أنه لمح الطويلة ذات العيون العسلية ، وبسرعة البرق كما لو كان تمنى من خادم المصباح . تحلقوا حوله وأنشدوا وبسملوا وحوقلوا . غاب أحدهم عن الحريم دقائق وعاد يعلن موافقة العروس .
عقد الأمير العقد فى نفس الجلسة . أخلوا لهم غرفة مجاورة . كان المهر جنيها كاملا ، دفعه الأمير نيابة عن حشمت . حشمت ليلتها دخل الدنيا بلا متاعب ، وتزوج العيون العسلية . هكذا الاسلام. تكافل وتعاون . لا مهر ولا شبكة ولا جهاز ، ولا الأدوات التى تجعل الانسان يلهث ليحصل عليها، ولا شقة يفنى عمره فى جمع ثمنها . الجميع تعاونوا ليجعلوه سعيدا واكتشف أنهم يحبونه فعلا.

الأمير الليلة غاضب كلماته كطلقات الرصاص. المسلم من قال لا اله إلا الله .. صح . وليس كل من قال لا اله إلا الله بمسلم .. إنه يرى أن الناس لا يفعلون ما يؤمنون به ، ويفعلون ما يأمرهم به الكافرون .
النساء فى الطريق كاسيات عاريات . المحلات والتليفزيون بها صور فاضحة تحث على الرذيلة . الفنادق والملاهى تقدم الخمور والمنكرات للسائحين وشباب المسلمين على حد سواء . البنوك تتعامل بالربا وشهادات الاستثمار ، وأن الأطفال سيكبرون فى مجتمع فاسد كله كفره يستحقون الموت . الحاكم والوزراء والموظفين لا يطبقون شريعة الاسلام ، صافحوا الأعداء وخانوا الأمانة ، وحق عليهم الموت وحق علينا الجهاد .
حى على الجهاد يا رجال . اذن فلنقاومهم ونقومهم . الكلمات لم تعد كافية يجب أن نستخدم عقولنا وأيدينا ، ليحسوا بمدى ما انزلقوا إليه . من منكم يا رجال يوقظهم ويفـــــجر الشرارة للاصلاح ويتطوع ؟ رفع الكل يده يطلب جنه المجاهدين .

حشمت اختاره الأمير . يا لهذا الشرف الكبير . بعدها بأيام جهزوا عبوة وضعوها فى كيس بلاستيك . رسموا خط سيرة حتى الميدان . ما عليه إلا أن يقترب ويضعها أسفل السيارة متظاهرا بأنه يلتقط شيئا أو يربط الحذاء ، ويضغط الزر ويمضى بعيدا ، ثم يحدث كل ما يريدونه تلقائيا .
مهمة بسيطة عظيمة التأثير ، سوف يعلمون الحق ويسيرون على الهدى بعدما يؤدبهم الانفجار . حشمت ليس أقل ممن سبقوه إلى هذا المجال كلهم أبطال ، سيكون مثلهم.

أحس حشمت بالحنين لأن يرى أمه وأخته قبل أن ينفذ مهمته البطولية . راح ودق الباب ، ودخل وجلس . تهكمت أخته على شكله فى ملابسه الغريبة . وأيدتها الأم فيما تقول . حشمت تقمص دور الداعية ، وبدأ يلقى عليهم الدروس فى الهداية والايمان والحشمة والعفاف والتقى حديثه يثير العجب والضحك ، فأثاروه مرة بعد أخرى اتهمهم بالفجور والكفر ، وتشابك بالأيدى مع أخته ولطم أمه ودفعها بقوة ، وصفق الباب خلفه ومضى نادما أنه زارهما.

انفجرت العبوة ، وانقلب الأتوبيس محطما فتوقفت الحياة فى الميدان الكبير . انتشرت الشرطة وعربات الاسعاف فى المكان . تزاحم الناس . غمر حشمت الشعور بالنصر والفخر والبطولة وانصرف بسرعة وهدوء .

عندما كان حشمت يطالع الصحف فوجىء بصور المصابين ، بينهم صورة صديق أمه القديم الأستاذ مصطفى فى عنبر الحوادث بالمستشفى . قرأ أن الرجل قد بترت قدمه وذراعه وأصابته الشظايا فى جسده ووجهه . راح إلى هناك . وقف أمامه وحدث نفسه أن هذا جزاؤه فلم ينسه أبدا طوال السنين واقفا خلف أمه يتحسسها فى بيته الواسع ، وأمه تبتسم بدلال وتتحرك فى هدءو ..و ..و .. وارتفع صوته يقول أن الله موجود يرى ويسمع ، وينتقم بالعدل من عباده الخطاءين ، وأن ذلك كان لابد أن يكون ، وأن الله اصطفاه ليرى انتقامه بعينه حتى تهدأ نفسه فهداه ليشمت فيه الآن.
وتكاثر الرجال عليه ، ومن حسن حظ حشمت أنهم لم يقتلوه . أيام قليلة ثم كانوا كلهم هناك ، حشمت والأمير والأخوه ، بعد أن داهمت الشرطة مكانهم ، فلم يكن حشمت ليكذب ، فعندما استجوبوه لم يقاوم ، سعيدا بالانتقام الذى ألهمه الله له.

في قفص الاتهام جلس حشمت وسط الاخوة ينتظرون الحكم . وبينما كان رئيس النيابة يقرأ المقدمة لم يستطيع حشمت أن يعرف لماذا تذكر الشيخ الذى قابله فى مسجد الحسين ، ربما يشبه القاضى فى استدارة وجهه وهدوئه وملامحه الطيبة . إن القاضى ينطق ببطء . كلماته ثاقبة كلـــها الحقيقة . لكنه استراح يحس أنه رسول العدالة ، رغم أن اخوانه لاينتظرون الخير أبدا فى هذه الجلسة.

حكمت المحكمة على المتهم الأول والثانى بالاعدام شنقا . امرأة كانت تجلس هناك تحمل فى بطنها جنينا بكت . دموعها سالت من عيون عسلية . وصاحت امرأة من نهاية القاعة مولولة نادبـــة ، كانت بوسة أم حشمت . عندما استطاعت أن تقترب من القفص قال لها.. كانت القنبلة من أجلك أنت ، تمنيت أن أفجرها فيك . واستدار ومشى ليجلس فى الركن ولم ينظر إليها ثانية . فى الساعة الثامنة من صباح أحد الأيام ارتفعت راية سوداء صغيرة فوق مبنى سجن الاستئناف بالقاهرة .

* * *

(الرقص علي الألغام)

شـــــادى الكلمـــــات

تنجح موجـة الأمل الأولـــى فى السيطرة على الشاطـــئ الشرقـــى ، فتشل عقولهـم وأيديهـــم وتعمى أبصارهم. يتوالى نجاحنـــا وينمو. تتسع رؤوس الكبارى، وتمتد شرقا فنسينـــا أننا بشر. فقط كنـــا جنودا نسترد أرضا وشرفـــا ومجدا. أحدنــــا قال إنهـــا تنتظرنـــا من سنوات ست. آخر قال لن نتركهـــم أبدا وسوف نشوى مؤخراتهـــم عندمـــا يستديرون هاربين إلى الشرق، وسأشعلهـــا بيدى، وفعلناهـــا وابتسمنـــا فى تشف ثم لم نتوقف .
اتحدت إرادة شعبنـــا ولم يدعنـــا نحارب المعركـــة وحدنـــا فانضم إلينـــا وقدم كل شئ لمجهـــود القتال بكل التأييد والدعـــم والحب والفخر والإعجاب والصبر فينـــا وعلينـــــا .

(من معـــزوفة الانتماء)

* * *

الرقص على الألغام

المحتويات

* * *

للكاتب

سور القاهرة الوردى	مجموعة قصصية		الهيئة العامة للكتاب
رقصة الجنرال	مجموعة قصصية		مدبولى الصغير
كنوز شمائل	مجموعة قصصية		أقلام مصرية
حوار مع جنية	مجموعة قصصية		الكتاب الفضى
اللعب بالديناميت	مجموعة قصصية	(م)	كتاب اليوم
أحلى ١٠ قصص	مجموعة قصصية	(م)	كتاب اليوم
أجنحة البوح	مجموعة قصصية	(م)	جماعة الجيل
٥٠قصة قصيرة	مجموعة قصصية	(م)	كتاب الجمهورية

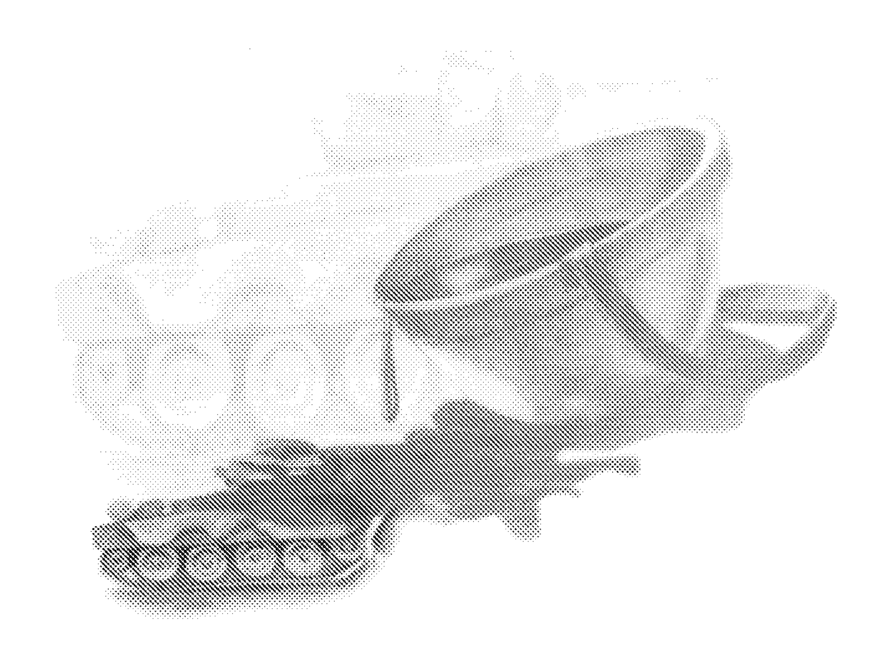
تحت الطبع

ليالى السمر فى دوار الصاوى
عندما تحلم راوية

جوائز

القصة القصيرة	دارأخبار اليوم	١٩٩٧
القصة القصيرة	المحاربين القدماء	١٩٩٩
القصة القصيرة	القوات المسلحة	٢٠٠١

* * *



الثمن ٦ جنيهات

طبع بمطابع أخبار اليوم